

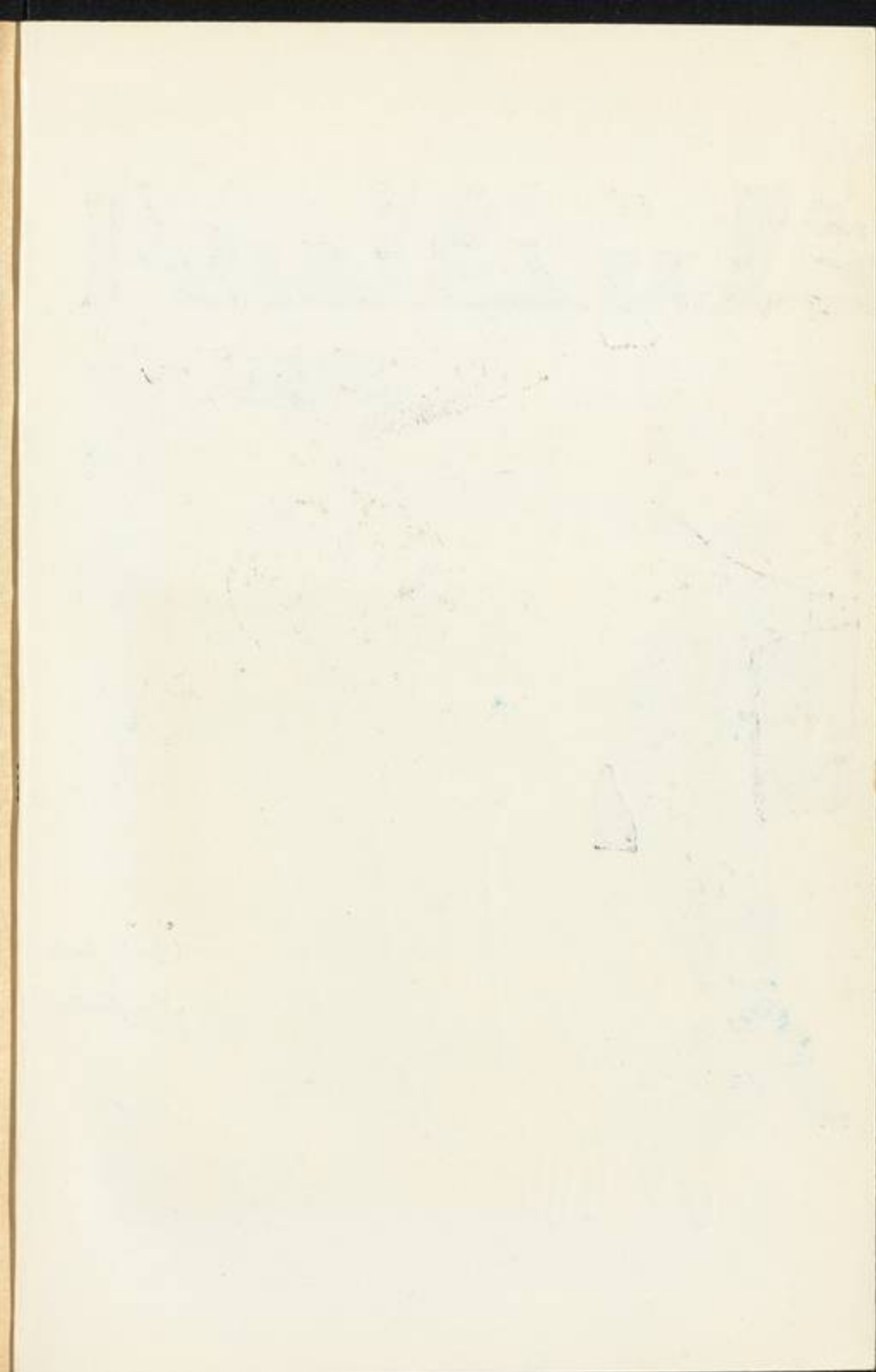
KHIDR

ILQI MA FI YADIK

القبائل بيدك



وفق
نظر



ألقى ما فى يدك

الطبعة الاولى

١٩٧٠

مطبعة الغري الحديثة - النجف - ت ٢٦٨٢

Khidr, Muwaffaq

موفق خضر

Ilqī mā fī yadik

الزيتون

قصص

2271
50924
K4
349

للكتّاب :

« رواية ١٩٦٠ »

المدينة تحتضن الرجال

« قصص ١٩٦٢ »

الانتظار والمطر

« قصص ١٩٦٨ »

مرح في فردوس صغير

ألق ما في يدك

١

— « ألق ما في يدك ايها الشيخ . . الق ما في يدك
واستسلم . . » .

خاطبته في سري . وجهت الكلمات الخافقة اليه وانا ارواح
بين الشفقة والتشفي شاعراً انهما إحساسان لعينان ينتاباني
الآن كما ينتابان روح شيطان . . كنت اوجه الكلمات وانا
اغرق اغرق في امتداد الصمت البارد ، ينداح في المكان ويدور
يدور مثل موجات من الهمس المصيب في الحلم . . احقق فيه
هذا الرجل المتهدم ، حيث ظل مرمياً باحتقار في الزاوية التي
وجدناه فيها متكوماً على كرسيه عارضاً جسده المتغضن للهواء
المخنوق الذي جمد من حوله في الغرفة المأفونة الرائحة التي
تنز بالموت ، وكان الهواء يتسداخل بطنين الصمت بينما امتسلاً

برائحة التانانة . لبثت انقل عيني في أرجاء الغرفة تملؤني
بنفس الوقت حيرة تكاد ان تنتهي الى اليقين والثبات والراحة
المعذبة ، فلقد انتهت القصة ، وألقى الرجل عصاه اخيراً
وانفلق البحر وغاض الماء وعبر الرجل البرزخ واحتواه اليقين
الموجع . . همهمات افراد الشرطة والرجال المختشدين الذين
أحدقوا به من كل جانب تشي بخوفهم وحذرهم وتمزجهم . .
انا اعرفه جيداً . . اسمعوا ايها الرجال . . انه لا يخيف ،
ولكنه يعبر البرزخ الى حيث تنتهي الاشياء ، وحيث ترونها
الآن مقابل الجثة ، مخلوقاً لن تصادفوه بعد اليوم . . الرجل
الشيخ المتهدم ، لا تتحرك عضلة فيه ، كانت فقط ثمة ابتسامة
صغيرة هازئة تسوح فوق وجهه المصفر ، وحركة صدره تعلو
وتهبط في ايقاع خفيف رتيب . . تقدم الرجال ولمسوه في
حذر ، وحينها تأكدوا انه حي ، وانه لن يؤذي واحداً منهم
تكوموا عليه وسحبوه عن كرسيه . عجبوا كيف طواعهم في
ذل . . ارتجف بادىء ذي بدء . . ارتعشت قدماه ، ولكنه
مشى بينهم صامداً كروح ثابتة تقاوم التيار . حدق بي وتمتم
من بين شفثيه . . ومرة أخرى سمعت هسيس الكلمات البائسة
في رأسي نحوم بعناد . . اعلنت النهاية وكأنني أمسح على حياة
الرجل بيد سخنة بالشفقة والتشفي — « كفى ايها الرجل . .

إلق ما في يدك . . إلق ما في يدك واستسلم . . .
خرجوا به . . بقيت وحدي . . غير اني خرجت خرجت
من مستطيل الغرفة وتنفست هواء العالم وحدي . . وكدت
ان أبكي . .

٢

غض من نظرك ايها الرجل الغريب . . إنزل عينيك عن
ان تتسلقا حيطان البيوت التي تتعانق متجاورة متلاصقة في
الشارع المقابل للمقهى التي بدأت تتردد عليها باصرار وعناد ،
تمسح بعينيك الدبقتين ارض الشارع وتفرعاته ومعاله ودوره
والناس الذين يدخلون فيه ويخرجون منه ، كأنك تبحث بهما
عن ضالة قطعت خلفها مئات الاميال . . كنت حذراً في البدء
ثم تجسدت في عينيك الضيقتين ، تلك العلامة المفرقة الدالة
عليك .. تطفح بالدبق والزوجة والواقحة وتستشير في الآخرين اول
ما تستشير العداة والخصومة . . بدأت ارقبك كما ارقب نزول حدث
بالغ الخطورة يقتحم علي الفكر ويملاً الطريق امامي بالعثرات ..
في البدء لم اعر بالآ لوجودك في المقهى التي لا يتردد عليها الا
الأصدقاء وسكان الشارع المقابل ومدمنو المساءات الخاوية ، وهم

فيما بينهم يعرف كلاً منهم الآخر . . اما ان تأتي انت في ذلك اليوم ثم تعاود المجيء متأكداً من انك ستحتل نفس المكان وبالصورة العنيدة التي تنطبع فوق وجهك كبصمات ثابتة ، فقد كان ذلك ما يشغلني ساعات طويلة . . كنت دبقاً الى حد السفالة ، مرتخياً بجسدك فوق تخت المقهى كما لو انك تعرف وجوهنا جيداً وتفهم ما يدور في خلدنا جميعاً ، وكنت حينذاك تبدو في وجودك معنا في المقهى كالعبء ينفرش عريضاً على مشارف الشارع وفروعه وازقته ، وكنت بذلك تكشط معالم شخصيتك بازميل من الصخر وتتحدد بيننا علامة لا تخطئها العين . . ومنذئذ كان بدء تأريخك معنا في الشارع . وقد خمنت اول الأمر انك تريد ان تفتح فيه اخدوداً يشبه الجرح او انك تريد ان تعثر على المنفذ الذي يوصلك الى الشارع واهله حتى تقلب أمنه وسلامه اللذيذين الى عالم من الضجيج والأثم يتخلله نعيبك .

ظلت عيناك تسوحان في الشارع المقابل للمقهى ، وكنت انا قريباً منك ارقب فيك النظرة اللزجة التي تتساق امتداد البيوت واسطحها المعراة للريح والشمس والامطار ، واستقرى فيك جنون الغرابة التي تخفي ما تخفي تحت مظهرك وحركاتك.. كان بيننا الصمت . وفي الصمت وحده امتد خيط بيننا شد

قطبي التنافر ، اذ كنت على الدوام اقف مستوفزاً ازاءك لأرد عليك . . في لحظة خالدة من الزمان الذي عشته انا التقت عينانا تحت تأثير قوة لا تقهر ، كنت ترمقني في ثبات يتجاوز كل اعتبار ، ووجهك يتوجه نحوي متطافحاً بابتسامتك الهازئة وذقنك المدبب يرتفع قليلاً عن صدرك وتنطبع في عينيك تلك العلامة المشيرة للاحساس . هبطت بعينيك تقتمح بهما وجودي في المقهى وانا اتكوم ثمة مثل كل المساءات المنصرمة باللاجدوى والفراغ والتردد في اقتحام التخوم البعيدة ، كنت قريباً منك ، احتل تختاً من تخوت المقهى مثبتاً عيني بالمقابل ما استطعت ، غير اني في نهاية المشهد ابتسمت . لا ادري لماذا . . هل كنت انت تثير اشمزازي وسخريتي ام كنت تحدد لي حدود عالمك في لحظة الالتقاء المظلمة بالتساؤلات . ؟ لا ادري .. غير اني خطوت اليك والقيت بظلي فوقك حتى غطى جسدي المرتخي فوق التخت ، وبقيت واقفاً ابحت عن صيغة سؤال ملائم ألقيه على رجل غريب مثير للعجب مثلك . . استشارني صمتك وبرودك واقتممتني كما لو انك تفتح في صدري كل الحدود وتطلقه للزوبعة ، وكدت ان اصرخ فيك وان اشعرك بوجودي الذي يفترض ان يشير لديك احساساً قوياً بالمواجهة والتحدي ، غير انك كنت موصولاً بحالة تشبه ان تكون ارتخاء تحت تأثير

مخدر خارق تصحو انت فيه ثابتاً كالصخر متجاهلاً كل الاشياء..
اهتز جسديك اهتزازاً خفيفاً لأول مرة وسمعتك تتمتم ببضعة
كلمات ، ثم جاءني صوتك نابعاً من انهار العالم الضاجة باصوات
الشلالات الهادرة - ولقد راقبتني طويلاً . . أليس كذلك .. «
وكدت ان اجيبك بوقاحة مبادراً الى اغلاق فك ، وان
احسم الامر بيني وبينك بان أمرك بترك المكان وعدم التشوف
طويلاً الى الشارع الذي اعتبره ويعتبره الآخرون عالمنا الخاص
مسيحياً لا تظنه اقدام غريب ولا يعبره الوافدون من مكان
آخر . . الا انك قلت لي من بين عينيك اللزجتين - « اجلس..
يسرني ان تجلس معي . . اما شبعت من أن تراقبني كل يوم ؟ »
سألتك عندئذ مطامناً من جموحي وحدثني - « ولكن من
تكون ايها السيد ؟ »

قلت لي بعناد - « ولكن لماذا لا تجلس هنا . . اجلس
وسأقول لك »

- « هل تبحث عن احد هنا . . »
- « انا ابحث عن كل شيء . . ولا ابحث عن شيء . »
- « لماذا لا تحدد معنى وجودك في المقهى ومراقبتك
للشارع . ؟ »

- « ربما ابحث عن شيء ما . . ولكن لماذا لا تجلس

الآن . . انا ادعوك الى ان تمارس معي وقتاً طيباً غير الوقت
الذي تمضيه . . . »

عجبت له . . قلت مستوفزاً - « غريب ان تقول لي
ذلك الآن . . . »

لماذا تلجأ الى المداورة . . . »

رفع عينيه الي . . . ألقىني به ، وكدت ان اقفز بعيداً
عنه ، كان غريباً حينما يوجه النظرة بذلك الاسلوب الذي يتراوح
بين البراءة والشبق .

- « لن اداور معك . . غير اني ادعوك الى ممارسة لعبة
لم تمارسها من قبل . . . »

وبهت لحظة نذ . . كنت تهدم الاسوار والحدود دون
مراوغة ، وتمد خطوتك نحو الآخرين دون ان تلتفت الى ماتشير
من زوابع ، ورغم انك كنت غريباً عن المكان كله ، الا انك
مضيت معي بجرأتك ووقاحتك وبعينيك العجيبتين تقلص المسافة
التي تمتد بيني وبينك وفيها ما فيها من تساؤلات بحيرة .

- « ولكن اية لعبة ايها السيد . . انك تهذي »

- « لن اهذي معك . . خذها من الآن . . لن يكون

بيننا الهذيان ، بل الحقيقة التي تنبع من الممارسة . . . »

- « عن أي شيء تقول . ؟ »

- « من الممتع ان تجلس معي الآن . وتبدأ اللعبة »
كنت ما أزال واقفاً ازامك ، ملتقيماً ظلي فوق جسديك
المرتخي كإداة هلامية ، اعلو فوقك وانمعن فيك . جذبت نظري
خطوط الشيب في رأسك والتغضنات الكثيرة التي حفرت آثارها
في وجهك تعلن عن هموم خفية . . جلست بجانبك . .
- « افصح عما تريد وعمن تبحث ايها السيد »
« دعنا من ذلك الآن . . لنبدأ اللعبة كي تكون هي
مراسيم علاقتنا »

- « أية لعبة ؟ »

- « ان نارس الصمت وسط هدير العالم المهرج المتعب . »
- « اهي طريقة في الحياة تسلكها انت »
- « اوه . . واستفدت منها الكثير الكثير . . دعنا نصمت
ونؤدي طقوس الصمت وسنعثر على الصفاء . »

وهكذا بدأنا اللعبة . . لعبتك يا ناجي حنون . . ياموظف
وزارة المالية العتيق المتقاعد . . يا من قضيت عمرك كله تسعى
كالمأفون الغائب عن كل شي" الا عن نفسه وافكاره . . تعرف
اين يكون الصفاء للانسان وان تعثر على مواقع البهجة تطرحها
على نفسك شالاً تلف به همومك ووحدتك . وترتادها مقتحماً
اسوار المجاببات التي تضعها لك المقادير والآخرين . . بدأنا

اللعبة بالصمت والاستغراق فيه الى حصد الدروشة ، وعجبت
 لنفسي كيف انسقت معك هذا الانسياق وكيف اني آثرت
 الصمت مستغرقة معك في بهجة التأمل الباطني للموجودات رغم
 كل الضجيج الذي كان يأتي الينا من الشارع الرئيس والمقهى
 والناس والسوق القريبة وفاضت بي روعة التأمل وشعرت تدريجياً
 ان ما يبني وبينك من غرابة اللقاء تذوب حتى تستحيل تآلفاً
 لا نظير له من الفهم . . فهمتك فهمتك يا ناجي حنون جواب
 آفاق ومقتحم مغامرات ، بيدك أدوات صيدك . تبحث عن
 يقين لم تنله رغم حياتك الطويلة حيث يخالط الشيب شعر
 رأسك . . ومن اعماق صممتنا في المقهى التي شهدت لقاءنا الاول
 انبعث صوتك خفيضاً اول الامر ، يهدد السلام المفقود وينيم
 اللحظات الملتهبة من العمر على النغم الذي راح يعلو محملاً
 بصوتك وانت تغني مقاماً عراقياً دون آلة لكل الناس الذين
 حولك . . التفت اليك ، وجدت معالم وجهك تسافر عاشقة في
 ليلة بليلة من ليالي صيف عزيز ، تسافر مع نغم عراقي حزين ،
 وجدتك لحظتها تبدو سعيداً بكل ذلك ، سعيداً رغم كل
 الآلام التي يبدو انك كابدتها في الماضي بصبر وشجاعة وبدأت عيناك
 تلتصمان بمزيج من ذلك البريق العجيب المحمل بالشبق والبراءة .
 واخيراً قلت لك - « ايها السيد . . من تكون . »

قلت لي سعيداً وانت تقطع جسد النغمة الحزينة
ويعاودك ذلك الامتداد المكثف في وجودك - « لقد اصبحنا
اصدقاء وهذا يكفي . .

ربما ستعرف عني الكثير . . دعنا الآن من ذلك مادمننا
أصبحنا اصدقاء . »

طامننت من تساؤلي وهو يدور جاحاً في صدري وعقلي ،
طامننت منه وانا اطلع اليك في شك فظيع يا ناجي حنون ،
ولن اخفي عنك ، فلقد نبئت فكرة التحدي معك حتى النهاية ،
ورغم اني كنت اكفكف من هواجسي الملعونة ازاءك فلقد كان
الرب والارتجاف يمران على احاسيسي مروراً بارداً مثيراً
للخوف ، ولم اكن اعلم انك تدخر لي كل ذلك . . .

٣

في مساء اليوم التالي على لقائي به ، مضيت ابحت واياه
عن بيت يسكنه في نفس الشارع الفرعي المقابل للمقهى ، والذي
ينتهي طرف منه الى نهر دجلة ، بينما يبدأ الطرف الآخر بتفرع
من شارع صلاح الدين حيث تقع المقهى التي عثرت فيها عليه..
كانت الاشجار العالية الخضراء العتيقة المعمرة والقائمة وراء

سور السفارة البريطانية تنوس لنسائم المساء الطفلة كما ينوس
رأس مغنية صغيرة تؤدي الغناء على المسرح . . فكرت به طويلاً
وانا امضي معه للبحث عن مسكن صغير يأوي اليه ، فكرت به
وعجبت كيف ينقاد اليه تفكيري هذا الانقياد السهل ، وخنت
انه يزاول التسكع كهنة اصيلة وانه ربما يمتن البوهيمية
كمذهب وانه ربما سيأتي بفعل من الافعال ذات يوم وسأكون
انا الوجه الآخر له . كنت افهم حق الفهم ان للشارع ودروبه
وازقته الفرعية واهله البسطاء عادة تجذرت في نفوسهم كنبات
صحراوي معمر - تدور حولها التحفيزات العنودة المتوارثة ازاء
اي غريب يطرق ارضية زقاقهم ودروبهم الضيقة ، ذلك ان
احجار الازقة تعرف اهلها حق المعرفة ، تعرف خطواتهم وتميزها
في الليل والنهار ، وحتى الجدران التي تخفي وراءها ما تخفي
والتي تقوم متلاصقة كصف من المرضى المصابين بالسل ، حتى
الجدران تعرف من هو القريب ومن هو الغريب كأن لها عيوناً تبرق
في الليل والنهار ترصد الآتي والذاهب وتنبض في تعب متواصل
خفية وراءها في حرص اسرار الناس المتعبين .

رغم ذلك ، مضينا نبحث ونسأل . . وكان ناجي حنون
يقف معي بقامته ووجهه المربع ملتزماً صمته حيث اتولى انا
السؤال عن دار صغيرة خالية ، وتظل عينا ناجي حنون تجوسان

ارجاء الزوايا ومشارف الطرقات كمن ينتهي الى يقين ثابت في
انه سيهبط هنا هبوط الطير في وكره لاحالة . . لاشيء اثاره
ازاء دهشة السكان واستغرابهم وتشوقهم وعيونهم الملأى بالفضول
والمتطلعة اليه بتحفظ . .

- « دعنا الآن . . سنجد بيتاً في الغد . »

- « ولكن امامنا وقتاً كافياً للبحث . . هل تعبت ؟ »

- « لم اتعب . . ولكن يخيل الي ان هناك بيتاً صغيراً
ينتظرني غداً ولن نصل اليه في بحثنا الآن ونحن ندور في
الطرقات كالحمير »

وعجبت كيف اجاز لنفسه ان يقيم التشبيه بهذا الحياد
واللامبالاة وكدت افارقه لولا انه بادر بصوته الثابت - « علينا
ان نكون اقوياء وصبورين . . لا تغضب . . »

وقهقه برعونة ونزق واستهتار واستتبع - « لا تغضب ،
علينا ان نتصبر كالحمير . . هاه . ؟ »

وظل يقهقه وقد بانت اسنانه الصفراء المنخورة . . احسست
بدبقه يتساق وجودي ، وكدت ان ابصق في وجهه وادعه وحده ،
ولكنه مضى متيقناً من اني ساسكت عليه راضياً كل الرضى ..
كانت له شخصية مغطاة بطبقة من تراب الزمن ولكنها تنبع
فجأة مطلعة رأسها كالشيطان فتنفث امامها ما تنفث وتستفيق

كعملاق أشعثم تعود مختلفة تحت اكوام من اتربة الزمن وهمومه .
كان ناجي حنون يبدو على الدوام متحدياً قوى لا تواجهه غيره
من الناس العاديين ، وكنت اجده فيه منذ لحظة اللقاء الأول
شيئاً ذا رائحة مثيرة لكوامن النفس ، حيث يتردى الفعل في
التردد والخوف والانكماش ، كان يثير فيّ شيئاً افتقده ولا اعيه ،
قوة لا أدركها ، جموحاً يبحر في اجواء العواصف ولا يتردد . .

٤

في اليوم التالي وجدت له بيتاً صغيراً يقبع كالذئب في آخر
درب ضيق ينتهي آخره الى الشط ، الى دجلة حيث يمضي النهر
متدفقاً كالارل الخالد نحو مصبات عشقه الأخير .

- « هل ستعيش فيه وحدك ؟ »

- « اجل . ، سأعيش وحدي . . هل تتصور أن لي

اقارب أو أهل ؟ »

- « كنت افترض انك لست وحدك . . »

- « ذلك افتراض يفرضه الآخرون . . دعنا من هذا كله . .

انا اعيش بمفردي »

- « ولكنني يا ناجي حنون اخشى ألا يسكت الجيران على

تفردك . . فللزقاق عاداته وتحفظاته . . .

- « اعرفها حق المعرفة . . وليست بي حاجة الى احد ،

كما انني لن يهمني كثيراً تقولات الناس »

- « يا ناجي حنون . . اما ينتسب اليك ولد أو بنت أو

أمرأة . . قل لي اذن . ؟ »

- « ربما . . ربما ينتسب الي كل الناس . . وربما انا

لا انتسب اصلاً الى واحد منهم . . ولكنني لست بحاجة الى احد »

تركته في البيت بعد ان نقل اليه أكواماً صغيرة رثة من

العفش ، كان ينقلها بمساعدة حمال يدفع عربة خشبية . . تجمع

بعض الاطفال ساعة نقل العفش . . زعق فيهم ناجي حنون

فتشتتوا كالنمل . . بينما كان هو يصب شتائه كالسيل .

انصرفت عنه وقبعت في المقهى وفكرت انه ربما سيأتي . .

وتساءلت لماذا يثير وجوده معي هذا التركيز الشديد حول ما

يدور في حياتي من بؤس وانهيار وتمزق ، ومن احساس بقيمة

معينة بدأت تراودني من طرف خفي . . قبعت في المقهى

وتفوقعت على نفسي كـكل الأيام الا ما يختلف به هذا المساء

الذي يتلون بثقل الظل السذي ألقاه هذا الرجل الغريب . .

آثرت الصمت مع نفسي وافكاري ، أتمسك بالصمت وحده ،

انكش فيه كالمقتمع بأي شيء حتى ولو كان تافهاً وصغيراً . .

انها لغتي الحمقاء التي اجيدها واتمرد ضدها مع نفسي فقط ،
لغة الاجترار للفعل المتردي في قاع الجبن والتردد . . أثور
واسخر من ثورتسي ، واعدود الى شيء من الرضى والأمن
والاستقرار ، ثم لا اعتم ان أثور دون غاية محددة ، غير هذا
الصراع الذي يتأبد في حياتي دون انقطاع . . ليس لي من
يدلني على اي شيء يمكن للأرواح التي تلبس افكاري ان
تستقر وتهدأ ، وليس لي من يقول لماذا أؤثر هذا الصمت
والانقياد الى كل الاشياء التي تمر بي دون ان ابالي بماذا تكون
نتائجه بالنسبة لي . . « ابتسام » هذه المرأة التي تتحرك بفعل
الشهوة والدعوة للأعتناق ، هي الأخرى تأخذ جانباً من هذا
الخط الذي ينتظم حياتي . . « ابتسام » زميلتي الموظفة في
الدائرة التي اعمل فيها كاتباً ، أشتهبها واحبها في آن واحد ،
كنت افكر فيها على انها رأس الشيطان الذي يثير عندي هذا
النزوع الى التمرد وانطفائي عنه في نفس الوقت . . فكرت ان
اقول لها انني احبك وانني اشتبهك في آن واحد وأنت تخطرين
بين غرف الدائرة واروقتها تحملين بيدك اوراقاً وملفات واضابير
الى المدير او الى بعض الموظفين الكبار وتتحدثين مع الجميع كما
لو انك تريدين اسماعي بكل ما تشتهين وتشيرين . . وفي مرات
عديدة كنت انتقم لنفسي منك فافح في سري فحیح الشعبان -

« احبك واشتهيك . . ولا بد أن اناك يوماً »

ومن عجب اني في هذا المساء بدأت اربط بين صورتي
ناجي حنون والمرأة الموظفة « ابتسام » ويسرني هذا الربط اذ
أجد فيه منفذاً للتشبيه بينهما على انهما يمثلان حقيقة واحدة . .
وفي النهاية ، وعندما لم استطع ان ابلغ من ذلك وطراً يخلصني
من كآبات المساء آثرت الصمت وانا اقاتل في عالمي المظلم قتال
الجنباء . . ها اني ادور في الحلقة المفرغة . . لقد كبت الكثير
الكثير من اشيائي التي اخلقها بيدي وافكاري . . كان ذلك قبل
ان التقى بناجي حنون . . وقبله عرفت اية لعنة تنصب عليّ
متمثلة في « ابتسام » ، ومن كثرة ما عانيت كبت في صدري
كل الأحاسيس ، ومرات عديدة بكيت وبكيت متدهوراً كالضعف
الذي ينزل صاعقاً في جسد مريض منهك يأكله المرض تدريجياً
ويمسك به في قوة لا تقلب . . ويلوح لي في آخر المساء وجه
ناجي حنون فاصرخ كالمشدهو في سري « اي شيء اذن وجدته
فيك يا ناجي حنون واية حياة تعدني بها بعد لقاءنا بالأمس
وانا اجدني ملتصقاً بك ومنقاداً اليك كالأعمى . . . »

٥

ظل يتردد على المقهى حيث نجتمع مساءً صحبة اصدقاء

يروق لهم صحب المذياح وضجيج الدومينة والطاوي والثرثرات
الكسولة التي تمتد لتمشغل فراغ الأيام الرتيبة المسئمة . . لا
شيء في المقهى سوى المنظر الكابي الذي يرين على جوها الكتيب
وجدرانها المغطاة بطبقة من آثار الأهمال والسخام . . كنا
نرتادها يومياً دون حساب لتغيير النمط الذي يتكرر دوماً ،
ولم اكن - طيلة معرفتي بالمقهى - أحاول الخروج من الشرفة
التي ظلت تضغط على روحسي المكتئبة والمستسلمة ، وتعصرني
بمساءات تهبط بساعاتها وتمضي دون انتظار لأي تبدل . . ألفت
كل شيء واعتبرته جزءاً من الحياة التي لا أجد فيها معنى رائعاً
يبدل من قيمتها المحددة في نظري . . ساعات الدوام في الدائرة
منكباً على الاوراق كما تنكب الخيول المنهكة على معالمها صافنة
ساكنة . . واقدم « ابتسام » تفرقع من غرفة الى غرفة في
الدائرة ، ياسرني فيها وجهها الذي يتكشف عن نزوته ودعوته
دون انقطاع . . واحلام بانسة تتراد كالخيال الواهن بيني
وبينها ، وفي الصمت الذي يلف علاقتنا يبرقع مهلهل من الخواطر
المربعة التي اكتنزها في ذهني كحجرون يتعامل مع الخارج بالتداعي
غير المنتظم للأشياء ، ولا يفعل غير ان يصمت . . وفي المساء
تتقضى الساعات في المقهى الكابية بجدرانها وروادها واستكانات
الشاي التي اجها باحتقار وتقزز . .

بـسـدأ نـسـاجـي حـنـون يـتـرـدـد عـلـى المـقـهـى ، وـفـي اكـثـر مـن مـرة
حـاـولـت نـجـاهـلـه لـكـنـه كـان يـثـير ذـلـك التـركـز العـمـيق فـي تـفـكـيرـي
بـه . . . وـكـدـت ان اـطـلـب اليـه ذـات مـرة ان يـمـتـنـع عـن المـجـي
فـحـضـورـه اـمـامـي و اـلتـزامـه مـقـعـداً بـجـانـي يـشـدني بـوثـاق غـلـيـظ يـظـل
يـزـيـدني رـعـباً يـجـتـاح نـفـسـي المـنـغـلـقـة عـلـى اـبـوابـها و يـحـرك افـكـارـي
المـأفـونـة بـالـف مـحـرك مـغـلف بـلـعـنـة دـبـقـة مـثـل عـيـنـيـه . . . و لـكـنـه
كـان يـعـضـي قـدماً غـير آبـه . . . و فـي مـرات عـديـدة كـان قـد بـسـدأ
يـتـعـامـل مـع رـواـد المـقـهـى و الاـصـدقـاء الآخـرين عـلـى اسـاس مـعـرفـته
الـحـمـيمـة بـهـم ، و كـانـه يـعـرف مـهـمـته مـنذ البـدء ، نـاسـفاً كـل
التـحـفـظـات ، مـندلـعاً مـع الصـجـب فـي صـوتـه الـذي بـسـدأ يـتـألف
مـع أصـواتـهم المـتـشـابـكـة الضـاجـة .

و فـي ذـات مـسـاء ، بـعد مـرور زـمـن عـلـى و جـودـه مـعـنا فـي المـحـلة
و الشـارـع و المـقـهـى . . . ذـات مـسـاء و كـانـت الاشـجار العـثـيقـة المـعـمرـة
المـصـفـوفـة و راء جـدار السـفـارة الـبرـيـطـانـيـة تـنـوس فـي حـركـة عـنـيفـة
مـحـدثـةً اـزـيـراً حـاداً تـضـخـمـه الـريـح المـسـائـيـة البـارـدة ، فـي ذـلـك
المـسـاء ألقى نـسـاجـي حـنـون كـلماتـه و هو يـحـاورني فـي المـقـهـى و كـانـه
يـعـرف سـلـفـاً انـفـي سـأـوافـق حـالاً دـون ان اشـغـل تـفـكـيرـي بـمـشـقـة
المـنـاقـشة - « لـسـاذا لا نـخـرج مـن هـنا . . . اـما تـخـتـمـق انـت مـن
سـحـب الدـخـان و جـمـعـجـعة الأصـوات . »

قلت له - « اين تريد ان نذهب . . دعنا هنا يا ناجي حنون . »
- « اسمع . . لا تكن عنوداً . . انني اعدك بان تقضي
معي وقتاً غير الذي تقضيه في هذه المقبرة . . هيه . .
هيا . . »

قت معه . . تجولنا في الشوارع متسكعين . قطعنا مئات
الامتار وانتهينا الى حانة صغيرة . دعاني اليها ، وكان لحظة نذ
يبدو مرحباً وكأنه يقبل على تمضية وقت لا مثيل له في البهجة ..
شربت معه العرق الأبيض . استطاع ناجي حنون ان يتحمل
أكثر من نصف القنينة بسهولة والتمه المزة بنهم وشراهة ،
وبدأت تختفي عن عينيه علامات اللزوجة القاتلة ويتحول انساناً
آخر مغلفاً بنكهة الحياة المنسرحة دون قيد . . قهقه طويلاً ،
وابتهج من اعماقه وغنى مقامات عراقية صاعداً فيها كما ترفرف
طيور الغاق رويداً رويداً حتى تحلق في الكبرياء السامقة . .
ولأول مرة بدأت اشعر بسعادة حقيقية ذات مذاق جديد ، إذ
عدت الى نفسي وأنا اهتز مع اهتزازات صوته وقهقهته وبدأت
الاشياء من حولي والتي تمتد الى أغوار من العمر تتكشف عن
صور شفيفة تختلط دوماً بضبايبات تتخاطف امام العين والفكر ..
- « اسمع . . انت تشرب قليلاً . . هل تراني جيداً ..
انك تجد امامك ناجي حنون الذي تقدم به العمر . . ولكن

لا تصدق كل ما يقال عن الالم . . عن الانسان الذي يبدو
متعبا بسبب الركض . . حينما تشرب فانك تتحول عملاقاً رغله
كل شي . . تندثر كل آثار الزمن عن وجهك « صمت قليلاً
ثم زعق بي بعد هنيهة في مرح مجنون - « اشرب أيها الشاب . .
ولا تكن ملعوناً . . وجباناً . . »

كنت التزم الصمت واعاينه بملاحظة مكثفة مدوخة
وابتسم كالأبله ، ولكنه عاد يزعق بصوته المعبأ برائحة العرق
- « هل أنت جبان . ؟ »

- « كلا . . لست جباناً يا ناجي حنون . »

- « انت جبان . . هكذا اخبرني . لم أجد فوق وجهك
آثار اقتحام تتحدى بها الموت نفسه »

- « بعد أن استعرضت حياتي الماضية يا ناجي حنون . .
لم أجد مغامرة تستحق الذكر . »

- « ولكنك تتجنبها متعمداً ايها الشاب . . هي امامك
وبمواجهتك دائماً ولكنك تزيج وجهك عنها »

- « وماذا تريد أن اقول لك يا ناجي حنون . . قلت
لك ليست لدي مغامرات تستحق الذكر »

- « انت جبان رغم ذلك . كان عليك أن تفتض بكرة
الايام وتكشط الزغب الذي يغلف قشرة الروح . . اما

صدت روحك . ؟ « تأوهت وتمتمت - اوه . . لشد ما صدت
الآن . . »

من خلال المراثيات المضطربة بكثافة ، والتي كانت تتخلل
جو الحانة الصغيرة الحقيمة بدأت ابصر وجهه مغلفاً بشعر أسر
بليخ . . كان لا يدع لي وقتاً لألحق به وهو يلقي بكلماته التي
تفوح بالعرق ، وعند ما أردت ان احديثه بشيء آخر ترددت
منسحباً الى ذاتي شاعراً بدوخة لذيدة ، وسمعتة يغني أغنية
عراقية قديمة وكأنه لم يلق الى سمعي كلمة واحدة مما قاله لي ..
ظل يتحرك قوياً في المحيط الذي زرعه حولي بينما كنت نقطة
مرحة منعزلة في المركز . . كانت الأغنية ذات مقاطع جنسية
وعراقية صميمية وكان يحرك رأسه حركات متساوقة ملقياً صوته
الضخم وسط الدوي الذي تبعته همهمات السكرى المنكبين على
موائدهم القذرة الملائى بنفائيات المزرة . . ظلت رائحة العرق
والمزرة وجو الحانة المشبع بالدخان تثقلني كصخرة تتهاوى
مشدودة الى القاع . كنت مخدراً الى حد الاحساس المكشف
بالوجود الحقيقي ، مرتدأ الى نفسي مرة اخرى ولكني في هذه
المررة أتلثم عالمي الخاص شفيفاً وفياضاً بالأسى . .
زعقت فيه - « لماذا تقطع الحديد يا ناجي حنون . .
انني لا افهمك . . »

قلت لك انني لست جباناً . »

ضحك بخبث وكأنه يشير الى سكري ، ولكنني حدثت فيه
بوقاحة بينما كان هو يشير بيديه في خبط - « تستطيع ان
تقاتل . . ولكنك لم تجرب كيف تقاتل حينما تأسرك الاحلام
التي تراودك نحو شاطئ الحياة المغامرة التي تعيج بالصعاليك .
- « كيف يكون ذلك ايها الصعلوك . . »

- « سمخي ما شئت . انا لا يهمني امرك . . بالنسبة لي ،
تراودني الشيطان الأسرة دوماً ، أسمى اليها ملهوفاً وأدركها في
النهاية متمرعاً فيها كما يتمرغ الوليد في أحضان أمه »
- « عليك اللعنة يا ناجي حنون . . »

- « صدقتي أنا لست سكران الآن ، وليكني اسألك . .
هل قاتلت يوماً . »

- « من أقاتل . ، أتريدني أخرج لقتال الخواء . . لم أجد
الا الخواء يا ناجي حنون »

قهقهه باستهتار - « ليكن تقاتل كل الحمير . كل القلاع
المتجهمة المنيعة التي تخفي كنوز الارض . افتحها وأفتحها . .
اطلقت ضحكي ازاء وجهه - « لن تكون في القلاع تلك
الكنوز . . »

- « هل قاتلت في الشوارع اذن أيها الشاب . . »

صمت مع نفسي ألوك العتمة الجديدة وسخرت مع نفسي
وقلت - « هه . . قاتلت في الشوارع تملوني أتربة الفشل . . »
وتذكرت حالاً كيف كانت الأيام تلك . . اصوات
الجهامير تهدر على أرض الشارع ويتعالى الهدير وتجمحظ عيون الجميع
مماوجة بين الغضب والمسرة وتبرز عروق الرجال في رقابهم
كأنهم صغيرة زرقاء تمتلأ بالمياه . . وترتفع اللافتات البيضاء
مصبوغة بشقى الألوان والحروف وهي تتلوى مع الريح معلنة عن
صوتنا ثمة . . كنا نقاتل في الهواء . . ونطرح الكلمات خواءً
على أرض الشارع وجنبايته ولا شيء بعد ذلك . . وكان الرجل
القابع في القلعة يبتسم ابتسامته الصفراء الغامضة وتهتز أكتافه
النحيلة مقهقماً من الفرح والزهو لكل الهتافات التي تتعالى من
أجله . . ونحن نوسع الجمع الهادر ونعلي من الصوت الصاخب
وترتفع الرايات ويبقى الهواء يجايبنا بالفراغ واللاشيء . . هكذا
قاتلنا يا ناجي حنون . . ثم ارتمينا في الصمت نمضغ المهزلة
ونلوك قصة قتالنا في الهواء والفراغ وارتكنا بعد ذلك ركناً
من مقاهي المدينة نجتز الذكريات . .

- « اسمع . . لم يكن قتالاً من أجل كسب القوت

للجوع . . كان قتالاً وهمياً لتمجيد الذات . . »

- « وهل واجهت الموت بملاحمة العذبة ذات يوم ؟ »

- « أنت تسكر يا ناجي حنون . . »

- « صدقتني انني لو شربت أكثر من قنينة عرق لمسا

تعتعت . . انني قوي ، هكذا كما تراني رغم انني تجاوزت

الخمسين منذ ست سنوات . . هل رأيت الموت بعينيه الحلوتين؟»

- « أجل . . ذات مرة وفي ماض من الزمن عذبوني حتى

الموت من اجل القضية التي كنت اؤمن بها . »

- « هل كان ذلك عذبا ؟ »

- « كانت قضية كبيرة تقف بديلة لموت الانسان . »

ولكنني بعد ذلك لم أجد شيئاً في الواقع . »

- « آه انك تحدثني كما لو انك تتألم . . لا تتألم . . حتى

في الموت يجب أن تكون قوياً ومجابهة وسعيداً . . اسمع انني احلم

دوماً بالعشور على حقيقة كبرى تكمن فيها بعد الموت . هل وجدت

أنت ذلك ؟ »

- « كلا يا ناجي حنون . »

- « ليتني اجدها ولكن كيف . . ذلك يخيبرني . . والسكر

يزيدني أحيانا احترافاً الى تلمسها كما اتمس هذه الكأس . »

- « انك تهذي . »

- « أنا لا أهذي . . »

واعتللت ملاحظه لأول مرة منذ أوينا إلى الحانة صباحة ألم

مكبوت ، وبينما كانت عيناه تنزان دبقاً كان يتأوه في داخله
بالتأكيد .

واختصرنا الوقت ، وغادرنا المكان وقد تأخر الليل . .
بقمينا نتسكع في الشوارع الليلية الخاوية ، وكان هو يغني دائماً
بينما لزمتُ الصمتُ أفكر بحياتي الراهنة وعلاقتي معه منذ التقيت
به ، ماذا يريد هذا الرجل وماذا يختزن في حياته . . وقبل
أن نفترق في المكان الذي تقع فيه بيوتنا المتطامنة الصامتة في
الليل اقترح علي ان آتي معه الى البيت واقضي معه ساعة
لا غير . .

٦

حياتي شريط سينمائي بالٍ من كثرة العرض والاستعمال ،
فعندما تعاودك الذكرى ، تستعيدها بالحاح وعذاب ولذة . .
لا امنع نفسي من ان ترتاد مواطن الذكرى . . الوحدة
يا صاحبي . . التفرد لوحدك يخلق منك رجلاً متصوفاً تتصاعد
فيك الروح سماوات وسماوات ، الا انا . . انا المتصوف
الدينيوي الوقح . . حتى في تصوفي لم اعش الزهد . . ووحدتي
واغترابي يبعثان في جسدي الشبق لكل ما في الحياة من بهجة

ورواء وشهوة ، وبين ذلك احلم بالموت على انه حقيقة صغيرة تخفي
وراءها حقيقة اكبر . . هل تريد ان تفهمني . . ليكون هذا الليل
المبلبل بعرقنا بداية العلم . . لتكن هذه الليلة اذن . . هل تعرف ناجي
حنون ، انه رجل حقير ونظيف في آن واحد . اعرف نفسي واعلم كل
مساوئي على انني اعرفها حق المعرفة ، ولذلك فانني اغدو احياناً
خفيفاً مثل جناح الطير ، لأنني اعرف انتمايي واعرف شهواتي
التي تنز من منبع المعجيبات اليومية مع كل مغريات الحياة ،
اقدم عليها في اقتحام بجنون ، لا يردني شيء مهسا بلغ من القوة
والمنع . . وفي النهاية انتصر ، الا شيئاً واحداً لم استطع ان
انتصر عليه . . ذلك هو الموت . . وفي الماضي اخذ الموت ابني
الصغير . أردت أن احاوره في الايام الاخيرة من حياته الطفلة . .
علمت ابني الصغير أن يتشجع وكنت امارس معه عملية تشبه عمل
الكيميائي في مختبره ، وكان الصغير يبتسم وهو منطرح في فراشه
الجحيمي بسبب ارتفاع الحمى . . كان يقول لي انه يرى اشياء
كثيرة ولكنه لم يستطع ان يصفها لي . . ووعدني وهو يعبر
الخطوات نحو الابدية انه سيكون مثلي وظل يبتسم ويرى الرؤى
واستطاع الصبي الصغير أن يعيش شهراً يصارع الموت ، وكنت
اثير فيه كل دوافع الحياة ليتمسك بها ويقابل كل شيء بشجاعة
ولكنه في النهاية مات ، وقبل ان يموت بساعات بكيت

كالأطفال عند قدميه ، وكنت ابكي مصير كل الاطفال الذين يولدون من أجل الموت ، كان صبيماً عظيماً لم يعيش إلا تسع سنوات فقط ، تركني بعدها دون ان أحقق فيه معجزة النصر ازاء الموت . . بعد ذلك ، تركت زوجتي التي لم اكن أحب معاشرتها منذ البداية ، كنت اكرهها بشكل فظيع واعاشرها في الليل وكانني انقياً شيئاً كريهاً ومقيتاً كانت قاسية وثرثارة وجافة القلب . لم احتملها بعد موت الصبي فتركتها دون طلاق، وسمعت بعد ذلك انها عاشت رجالاً عديدين بسهولة ولم ابال بذلك بل كنت ابتهج إذ أراها تختنق في الطين . . وخيل إلي ان سنوات الصوم الحقيقي قد انتهت وبدأت حياة الصعلكة والتحدي الموجع إلى آخر الشوط . . هذا الشوط الذي لم أدرك نهايته لحد الآن . . وحينما تراني الآن تستطيع ان ترى على جسدي آثار زمن طويل وتجارب فذة وبصمات نساء برجوازيات كن يرتضين العلاقة معي بجنون اذ يجدن في جنوناً وشهوة لا تحد . . واكثر من امرأة متزوجة كانت تخون زوجها معي دون خوف ، وكانت غرف النوم المترفة تحوطني في النهار وفي الليل وعندما يذهب الرجال البرجوازيون وهم آمنون من شرف البيوت المدهونة بالتزف كنت اتسلل غير وجل ، وفي كثير من المرات حملت السلاح لمجابهة أي طارئ يقابلني في الأقبية الملونة الزاخرة باللهاث .

في نهاية تطوافي التقيت بالمرأة التي أحرقتني . إمتنعت عني
في البداية . . . كان اسمها « نوال » وكانت تزاول العهر مع
كثير من الرجال قبل ان تلتقي بي ، كانت مومساً بمعنى الكلمة
غير انها كانت تتعفف احياناً الى درجة لا تصدق ، كانت
تفهم كيف يكون الحب ، ولذلك أثرتني في النهاية وامتنتعت عن
الآخرين . مصت كل عروقي كرجل ، وكانت امرأة رائعة كل
الروعة ، وفي ليال مسهدة كانت تبكي عند قدمي في مخدعها
وتقول لي - « كيف يمكن ان نفترق . . . كيف يمكن ان
نتلاشى . . . » وتشهق بالدموع واطل مستغرقة في منظرها
العجيب ، كانت تملك جسداً مرصعاً بطبقة من الحليب الدسم ،
وكان هذا الجسد ينمو بقوة لا ترد ، ويتألق باستمرار بين يدي
وكنت أتساءل حينها كيف يمكن للموت نفسه أن يطويه وهو
بهذا الحد من القوة والفتنة . . . وذات يوم ذهبت « نوال »
ولم تعد . . . بحثت عنها كل الأمكنة كالمعتوه ، ولكنها كانت قد
قررت الا تعود إلي . . . عدت اطفو فوق الشوارع والطرقات
وحيداً صعلوكاً كل الصعلكة ، لفظني الناس وعافني الجميع ،
غير ان شبق الحياة والشواطيء الآسرة بالصخب ظلت تدق في
جسدي أجراماً مزلزلة وكأنها موصولة بفعل القوى الكامنة في
النفس الظمأى . . . وكنت كثيراً ما اتوقف في منحدر الجري

اساؤل نفسي ترى أية نهاية ستجابهني من بعد وهل سأسقط
شهيداً من اجل قضية ما أم هو التحرق المأفون هو الذي
سيحرقني على الدوام من أجل اللاشيء . ؟ ورغم ذلك بقيت
أعدو على الطريق وما يزال النداء يلهب في عقلي لهفة لا
تنطفىء . . هناك شيء يدعوني بلهفة ولا بد ان احتضنه في
يوم من هذه الايام . . . »

كان ناجي حنون يتحدث في الليل . . وقد بقيت ساعات
قليلة ويظر فجر اليوم التالي بعدها . كان صوته في الليل مليئاً
بسحر التجربة والطواف ، محمداً برائحة التخوم التي تهوم في
البعيد البعيد ، وكنت انا مرمياً في مركز الجذب مشدوداً اليه
كما لو انني قيدت بحديد .

صحوت بعد ذلك على الصمت ، وكان ناجي حنون قد بدأ
يرتخي من السكر والعرق وقد احمرت عيناه كالجمر .
قلت له كلماخوذ - « انك رائع يا ناجي . . حنون . .
انك رجل فذ » .

قهقهه فجأة واراد ان ينسام وهو جالس وراح يتمتم -
« كلا . . لست الا صعلوكاً خددته التجارب وحده ودون ان
تطاله بالهزيمة . . »

- « هل تذكر اول لقاء لنا في المقهى . . كنت استريب

منك . . ألا تذكر تلك الدعوة الى اللحظات السدرويشية التي
استغرقتنا فيها حتى وصلنا درجة الصفاء الروحي . . .
- « فلننفلح ذلك الآن . . دعنا نصمت . .
وصمتنا في الليل ، وكانت الريح تعول في الخارج ملقمة
باصواتها بين زوايا البيوت المتظامنة في ذل . . ونام ناجي
حنون . وانسللت مع بداية الفجر .

٧

كانت الشمس قد ألفت اشعتها البيضاء على جدران البيوت
وامتدت ظلال الصباح باردة على الازقة الضيقة المتشعبة . .
وكنت قد قررت اليوم عندما التقى بوجه « ابتسام » في الدائرة
ان انهي جدار الصمت بيني وبينها ، ملغياً شروط العلاقات
الباردة التي قامت في ما بيننا منذ بدئها على اساس من التردد ،
وكنت امتلى* في الصباح بذلك الاحساس العجيب بانني اتقدم
نحو ابراج الصمت لأغمد سيفي في الضبايات المتكومة امامي
مزيجاً طبقة من المعاناة الكالحة التي ترسبت في الاعماق من
نفسى المكظومة على السر . . وكان ظل ناجي حنون وصوته
يلاحقاني في تفكيري المتواصل بابتسام وكان وجهه يتراعى لي

ويعاودني بأسايريه التي تتقلص بين السخرية والشجاعة .
وفي الدائرة التقيت بها تتظاهر بالبرم واللامبالاة على
عادتها كلما خلقت الصدفة لحظة التقاءٍ بها بعيداً عن أعين الموظفين
الآخرين . .

قلت لها - « اسمعي ابتسام . . كل هذا لن ينفعنا ابداً . »
التفتت اليّ وكانت في يدها اوراق رسمية وتبحث باليد
الاخري عن اوراق غيرها ، . حملت بي بعجب ودهشة وقالت
بصوت يشبه ان يكون استنكاراً - « كيف . . ماذا تقول . .
انك لا تستطيع افهامي »

- « اقول لك . . ان كل ما نتظاهر به هنا لن ينفعنا
قيد شعرة . »

- « ولكن هل حدث اننا تظاهرنا معاً بشيٍ مبطن بالسر
بيني وبينك »

- « اجل . وكوني شجاعة . ولن تغالطي معي بعد اليوم ،
ولن اغالط نفسي معك . . انني احبك واشتهيكي . »

وقفت مذهولة وحملت بعينيها تتفحص الحيز الذي احتله .
ارتخت الاوراق نسبياً في يدها ولم تشعر بذلك جيداً بينما كنت
الاحظ ذلك بوضوح . .

- « كيف يمكن ان يكون ذلك صحيحاً . »

- « انا استبطن كل مشاعرك منذ البدء ، وفي الوقت الذي
افكر بذلك يكون ما يحصل في الدائرة معك صحيحاً . »
- « انك تتحدث بالمنطق . . وتدعي انك تحبني . . »
- « تأكدي انني احبك . . كونني شجاعة وتقديمي الي »
- « انك لمجنون . . »
- « قلت لك انني احبك واشتهيكي »
زمت شفيتها فيها يشبه الغضب والقت عبارتها - « ليكن . . »
ومضت مثل ثورة جاجة لا يقر لها قرار . مضت الى غرفتها
مع الموظفات الأخريات ، بينما امتلأ صدري بطوفان من العذوبة
والاندهال والترقب . كانت الساعة التي اعلنت فيها عماني نفسي
ساعة عظيمة من الزمن . . عاودت ترقبي لها علني التقني بهسا
مرة اخرى بعيداً عن اعين الآخرين ، الا ان الدوام الرسمي
للدائرة انتهى دون ان اواجهها بمعنى تصرفها الأخير ، ورأيتها
تخرج من الدائرة في نهاية الدوام وتذهب في طريقها مقطبة
مشغولة .

٨

ادور كالحصان المشدود الى اللجام ، أدور في كل الطرقات

والشوارع . . عيناى زائقتان كأنهما ملئتتا رصاصاً . . احس فى
فى طعم الملح الممجوج ، ينز جسدى عرقاً ولهاثاً ، وانا أدور
فى الشوارع واقف عند واجهات المقاهى الكئيبة القذرة ابحت
عنه . . كان قد مضى ما يقرب الشهر منذ غاب عني وجهه
وترك الدار تصفر بالسكون والصمت مغلقة الراج دون ان
تنفتح مواربة كما كان يفعل دون مبالاة ، كان قد مضى شهر
تقريباً منذ انقضاء الليلة التى حدثنى فيها عن نفسه وماضيه
ومنذ صارحت « ابتسام » فى اليوم التالى واضعاً بين يديها اسرار
النفس الكظيمة الموهودة ، ذهب فى غموض محير كما جاء الى المقهى
اول مرة محاطاً بغموضه . . سألت عنه ، لم اجسد هناك فى
المقاهى والشوارع والتكيا من يعرفه ، وشمتمته فى نهاية الطواف
المضى ، وفكرت انه ربما أنهى حياته انتحاراً ومضى الى الابد
دون ان يفرق وجهه مرة اخرى بالطوفان الذى يعيشه ويرميه
دوماً الى مجهول لا يدرك . .

وفى اليوم التالى لم اكن قد انتويت السؤال عنه غير ان
ما كان يسيرني بقوة غامضة هو الذى دفعني الى ان اتجه الى
نصب الحرية . . تظلمت على الرصيف برهة واسترحت نسيماً
ينحدر عليلاً صوب النصب ويتساقط بعشق كالمطر الناعم الذى
يلمس الوجوه المحموحة ، وبمقابل الساحة المدورة الهائلة حيث

تدور حولها السيارات بتصخاب وضجيج كان يقتعده حافة المستطيل
الاسمنتي حيث تنمو ثمة بعض اغصان الورد الفقيرة الذليلة ..
نظرت اليه بتمعن وشك ، كان هو يسدد الي نظرة لا مبالية
ولكنه تقدم نحوي متثاقلاً ..

- « أهو أنت ايها الشاب .. يالك من احق »

- « لست انا الأحمق . بل انت يا ناجي حنون ، كان
عليك ان تدع الطلاسم الحقيمة التي تغلف بها نفسك وتصرفاتك »
- « ولكن لماذا لا تسمعي اولا ايها الصديق .. انا لست
طلسماً كما تتصور .. اسمعي فقط »

- « انت تمتاز بحمارة بشعة .. اتريد ان تثير عندي صورة
لرجل مغامر .. ما انعس ذلك »

- « فعلاً . . ذلك غاية في التعاسة ايها الصديق . ولكني
لست نبياً »

- « قل لي كيف يمكن ان تتوصل الى تحقيق الصورة التي
تريد .. ما انت إلا رجل عادي »

- « لست عادياً ايضاً .. اسمعي فقط ايها الصديق . .
إن ذلك غاية في التعاسة »

- « أيسة تعاسة تريد ان تثير زوبعتها في شخصك لتبدو
خارقاً ؟ »

وكاد ان يبكي . رأيته ينكفي* بوجهه الى الارض ويحدق
مستغرقاً في ذهول حول المكان الذي تقف فيه ثم يرفع عينيه
وهما تغيمان وراء طبقة لامعة من دموع كبيرة . .

- « اسمعني ايها الشاب . . لقد وجدتها . »

كنت فرحاً بلقاؤه في واقع الأمر . . لم يهمني كيف استقبلته
كان يشيرني اني وجدته قائماً امامي دون اية شكوك . وفي
اللحظة التي التي فيها نهاية عبارته توقفت عن الكلام مجبراً . .
وحممت - « من . . من يا ناجي حنون ؟ »

- « وجدتها يا صديق . . زاوية مثل غصن نفض خضرتسه

وطرح ثاره وجف وحده في عري الصحراء »

- « اتكون هي اذن . ؟ »

- « هي يا صديق . . اتذكر « نوال » المومس . . لقد

اضحت تستجدي الأكف . . عثرت عليها تستجدي فعلاً في
منعطف من شارع السعدون . . عرفتي المومس . . اخذتني الى
الخرابة ، وبكيت في حضنها كالطفل ، ونمت معها أحرسها
من الضيم »

حممت في وجهه كالمذهول - « ناجي حنون . . . »

- « كنت معها فعلاً يا صديق طيلة هذه الأيام . . رائحتها .

رائحة الماضي . . الخدر والفراش وعطورها الخاصة . . زاولت

معها ساعات من الصمت كنا خلالها نبكي كأطفال ضلوا في شعب
من الطريق . . آه يا صديق . . »

هززه بقوة . كان ظل النصب يمتد كعريشة من العنب
مقرورة وناعمة . هزته بيدي . . قلت له في النهاية وانا اصحو -
« ماذا ستصنع . . تعال معي . . تعال معي . . »

توقف لحظة ثم رفع عينيه في ارجاء المكان . قال لي في
ثقة تنبعت كما تنبعت شرارات عينيه السدبقتين - « سأعود
بالتأكيد . . ولكنني سأعود معها »

صرخت فيه - « ماذا تقول . . انك لمجنون »

- « لن اتركها وحدها في الضيم السذي تجرعه زمناً
طويلاً . . اتعلم . . لقد ضيعت وبعثرت من أجلي في الماضي كل
ما لديها من مال . وها هي تعود خاوية من كل شيء . . لن
اتركها يا صديق . . »

- « وماذا ستقول لأهل الشارع والزقاق والأصدقاء؟ »

- « دعني منهم جميعاً . . انا لست بحاجة الى احد . . »

- « ولكنني اخشى ان يعترض الجميع ثمة . . وخاصة اذا

هم عرفوا سرها »

- « يالك من مضحك . . وماذا يهم إن هم عرفوا سرها . .

انها الآن بيضاء كغيمة صغيرة وديعة . . »

- « انفي اوشك ان ارى شؤماً في كل هذا الذي تفعله يا

ناجي حنون »

- « لا يهمني كل ما تقوله .. سأعود بها ايها الصديق .

وافترقنا .. كانت خطواته ثقيلة متعبة واهنة .. حـدست

انه ما يزال بعقله معي وانه يعرف في هذه اللحظة اني اراقبه

في اسمى ، لذلك حاول ان يستقيم في مشيته .. ابتعد باتجاه

الطرق الشاحبة التي تقع خلف السعدون . ظل يتوغل منحشراً

بين الناس حتى لم اعد اراه .

٩

ينبتق المستطيل في الظلمة .. تتنور حوافه بالغييمات

وتتمطط خطوطه بينما اقف انا على العدو .. تقبل « ابتسام »

بجسدها الهائل وتمتد امامي كالاخطبوط في كل الاتجاهات .

وتبدأ ترفع ذراعيها نحوي وتلتفان حول عني . كنت يابساً لا

أريـم بينما كانت الذراعان تهصران العنق هصرأ مروعاً ..

تصاعدت الابجرة موشوشة كالفحيح .. وفي البعيد اطلعت الأشجار

اعناقها واستعالت اشباحاً راحت تتعالى رؤوسها وذوائبها

متشابكة في فوضى وحركة موصولة موصولة ، تتداخل مع حافات

الغيوم المضنبة .. وحينما دمدمت الريح اتخذ وجه « ابتسام »
ملامح اندلاعة الشبق بينما راحت هي نفسها تعوي كذئبه
جريحة .. أمتد انا في المستطيل المتعرج الخطوط شاعراً بكثافة
ثقل جسدها لاصقاً بي ملقياً بثقله ساحباً معه همهمات الجوع
والأنين .. تختفي الأبتسامة الغريبة المرتوية وتنمحي فجأة ويهل
من وراء خطوط المستطيل المضنّب مطر العوالم البعيدة منطفئاً
مرة واحدة تاركاً خلف خطوط الليل اللاهث لا غير ..

استيقظت متعباً . احسست بمرارة لاذعة . جبت تفاصيل
الحلم المنطفيء واستعدته في غرابة وذهول .. كان الصباح صيفياً
محملاً برائحة العرق والنتانة ، ولم اكن صاحباً كل الصحو ..
لبست ملابسني واجتزت عتبة البيت ، وقبل ان اواجه
المشاهد الصباحية وانا اتوجه نحو الدائرة ، عرجت على دار
ناجني حنون .. وجدته مغلقاً .. انه الآن معها .. جاء بها منذ
ايام واغلق دونها المنافذ والأبواب وتحول انسانا كالصرصار ..
لم يعد يلتقي باحد . بدأ يخرج على وجل وكأبة وهم ، يبتاع
له ولها زاداً ثم يعود مسرعاً الى الدار ويتوارى فيها كأنه مصاب
بالجدام .. وقفت ازاء الباب ، ورحت انصت .. لم تطرق اذني
نأمة من السداخل ، وخننت انها يزاولان عملاً ما في ركن من
البيت يفوح منه السحر . كان جسدي يرتعش ورأسي يشتعل

بعالمه الصاخب بلا قرار ، وكنت نخذولا وحدي شاعراً بأسى
بليغ . . قطعت المسافة الى الدائرة وليس معي ما احمله الا
صورة الحلم والكابوس وعالم تضحج طبوله في الصباحات الصيفية .
التقيت بوجهه « ابتسام » في الدائرة ، وعجبت كيف
يبدو رائعاً ومستسلماً في آن واحد رغم كل طفاوات التمرد
التي تظهر على شكل قساوة متصنعة . وحينما كانت تريد ان
تتحرر - جاهدة - من اسار النظرة التي كنت اسدها اليها
بتصميم ومضاء ، كنت على يقين من انها لن تكون الا لي هذا
اليوم وليس غداً .

- « ابتسام . . لقد مضى علينا زمن طويل منذ صارحتك ..

لماذا لا تكونين لي ؟ . »

صمتت فم زفرت - « انك تطالبني بما لا طاقة لي عليه »

- « انني افهمك . . لا تراعي . انا استبطنك ، ولن ينفعنا

تظاهرها بالجهل »

- « ماذا تريد مني . . ها انني انتظر منك ان تفعل شيئاً . »

قاطعتها - « انك لي منذ اليوم . . احبك واريدك . »

- « انك رجل نظري . »

- « لن اكون نظرياً تجاهك »

- « والكلمات تطرحها كيفما تدور في ذهنك »

- « اترين . . لا وقت للكلمات ، اذن »

الرياح تتطارح مع القمم في الاعالي ، ونحن انسانان
يتعاطيان افيون الارض والجسد . . الموعد بيننا يستبق اللهاث..
والضفاف تنتظر أوبة السفن المغامرة التي طال عليها امد السفر
والطيور المحلقة في الفضاء كانت تهوي على الصخور الناتئة
تضربها بالجناح راعشة نازفة . . وبيننا وبين ابتسام الخيط الرفيع
من زمن الانتظار والكبرياء والتعالي ، ثم يتقطع فجأة ويتهاوى
طرفه إلى الأرض ليمسح عنها الظماً . .

١٠

صوتك يا ناجي حنون يأتي إليّ في هالة الساعة مثل
صغير حاد ، يخترق اذني ويصلبني أمامها كالمأخوذ . . صوتك
المدهون بالاثم يحاورني في الاعماق ويطلق القهقهات غارقاً فيها
بدعارة . . واسمعك تقول - « كن مثلي ايها الشاب . . لن
تدعها تفلت من يديك »

أنتقدم خطوات منها وهي ازائي تنتظر طقوس الحزن . .
واسمعك يا ناجي حنون مرة اخرى - « انك تحبها . . أليس
كذلك . . ولكن الحب يظل ناقصاً. بدون القطوس التي يحميمها

الجسد . . « أحتضن جسدي » ابتسام . يستسلم الوجه الذي
صنع حلم الامل . . تدريجياً يتشوه الوجه بدقائق التفصيلات
التي ترسمها مستلزمات الطقوس . . يسقط المستطيل الحلمي
كتلة هامة ، وتستفيق اللحظات مرة اخرى على حركة الحياة
تمضي في عاديته بتجرد غير مبال بأحزان الآخرين . نحن
هنا حزاني حتى أعماق الاعماق ، واستفيق انا على وجهها مصاباً
بعاهة التفاهة حتى الموت . . كانت مستلقية ثمة وقد بدا كل
شيء مشيراً للتمزز . . عبر صوت ناجي حنون المسافات والقي
بالمزامير فوق رأسي وطفقت مواويل الحزن تتلو تاء وهات
اللاشيء . . اللاشيء . . اللاشيء . .

١١

انقضى يوم واحد كامل دون ان يفتح الباب ويخرج
ناجي حنون . . وفي اليوم التالي لاحظت ان الباب لم يفتح
وان الصمت في داخل الدار يوحى بقشعريرة بتأزاهما اعتقد
بجنونه وشذوذه . . وفي اليوم الثالث تساءلت لماذا لا ينير
الغرفة ذات النافذة المطلة على الطريق . . واعتقدت انه ربما
انتقل إلى الغرفة الخلفية ابتعاداً عن فضول الناس مادام يعيش

مع « نوال » الموسس .

وفي الليل حينما تماوجت نسمة ليلية عبر دروب الرزاق
نقلت معها رائحة غريبة لا تخطر على بال . . وفي اليوم الرابع
انتشرت الرائحة مثل طاعون مريع . . انتبه الآخرون ، ودبت
حركة الاقدام في زعر ورعب ، وبدأوا يتساءلون بالحساح أي
شيء يمكن ان تكون هذه الرائحة تجمع الناس وساد بينهم
المرج ، وراحوا يطرحون تساؤلات عديدة وكنت بينهم صامتاً
يلجمني الغضب والحيرة والذهول . . انتظرت معهم ان يفعل
ناجي حنون شيئاً ويبادر إلى فتح الباب ويقدم تفسيراً للرائحة
التي تنبعث من داخل الدار ، الا انه كان قد احكم رتاج
الابواب والنوافذ ولم تعد اية حركة او نامة تترامى إلى الخارج
حيث يحتمش الناس وحيث يسود بينهم هلع مزلزل . . تقياً
ثلاثة من الواقفين بسبب الرائحة وحملوا بعيدياً . . ارتفعت
الأصوات محتجة اشد الاحتجاج ، ولم اجد مناصاً من ان اصيح
باعلى صوتي - « ناجي حنون . . ناجي حنون . . اخرج . .
اخرج . . »

التزم الجميع الحاشد بالصمت المفاجيء إذ حملتهم رنة
الأسى الموحش في كلماتي على ان يلتزموا صمتهم في رهبة وخشوع .
عدت اصيح - « لماذا لا تخرج . . ناجي حنون . . اخرج »

انذهل الناس بعمق ، واعتزتهم رجفة شديدة . . وفجأة
تحركت فئة منهم متوعدة مزيجرة ولم تنقض إلا دقائق حتى
حضر إلى المكان أفراد من الشرطة ، وفي الساعة الواحدة بعد
الظهر قرر الجميع ان يحطموا الباب ويقتحموا السر المريع .
انصفق الباب بشدة تحت تأثير الضغط المتزايد . . وامتلأت
انوفنا بالرائحة ، وكدنا ننكفيء على وجوهنا كما لو انها العاصفة
تقصف قاعاتنا وتسف في اعيننا الرمال . .

ورأينا على مسافة من باب الغرفة المفتوحة على آخرها..
كان ناجي حنون يقتعد قريباً من جثتها الممدودة على السرير ،
وكانت المومس مغلقة العينين وعلى وجهها المصفر تسوح رائحة
الموت الرضي . . كانت عارية تماماً . . عراها ناجي حنون
بعد الموت وطرحها هكذا على السرير عارية مثلما جاءت إلى
العالم قبل عقود من الزمن لا ادركها . . كان جسدها ناعماً
خالياً من آثار زمن العمر وكأنها تطهرت قبل الموت بمزيج
عجيب من النقاء الخارق . . وكان ناجي حنون قابلاً وجامداً
وقد جحظت حدقاته وبان فيهما ذلك الشيء الهائل الذي كان
يبدو كما لو انه يكشف عن حقيقة كبيرة كانت قريبة منه بعيدة
عنه دهرأ طويلاً ما عاشه الا ليلقاه هذا اللقاء . .

امامه ، وهو ينهض عن مقعده بمساعدة الشرطة . . امامه
وحوحت كالمهزوم - « الق ما في يدك . . استسلم يا ناجي حنون . . »
وكدت ازجر بها في وجهه ، لولا انه سدد إلي نظرته المليئة
بالرضى والطمأنينة والفرحة . . بدأت حركة المحتشدين داخل
البيت تأخذ طابع الوحشة الباردة ، إذ واصل بعض الافراد
بمعية الشرطة رفع الميتة عن السرير ونقلها الى التشريح . .
وتحرك اشخاص هنا وهناك مستطلعين ، وكنت اقف مذهولاً
وسطهم واهمهم - « الق ما في يدك . . ايها الشيخ المأفون . . »
ابصرت ابتسامة فوق وجه ناجي حنون . . وعندما تقدم اليه
الحاضرون ليقموا اطاعهم في ذل ثم مشى واهناً وعدل قامته
في النهاية ومشى بينهم الى الخارج .
بقيت وحدي . . خرجت الى هواء العالم . . وكدت ان
ابكي . .

حكايتان عن المدينة « ن »

الحكاية الأولى : العلاقة

انا مواطن من المدينة « ن » ذات الشوارع المتأكلة ،
المتزعة بالألوان والوحل . أحمل في رأسي المحموم مشروع عمل ،
القيام برحلة لعينة الى السداخل . انحت كلمات للعالم المهووس ،
واجت من الاكتمال النهائي لقصيدة نثر يرين ثقلها المدوخ فوق
جسدي المنهك كله ، ساعياً خلال تجوالي المأفون فوق الأرصفة
الرمادية الى مسك القصيدة ك مخلوق من طرفها الأول لتتوحد
الكلمات من بعد نسيجاً من نزيغ البحث والضياع .

تتقاذفي المقاهي المسائية الكثيبة ، ارتادها غارقاً بلذة
درويشية في دوامة الضجيج . . صوت المذياع والتلفزيون
والصور المتتالية دون انقطاع وحركة المارة المنتظمة كشيء غير
قابل للتطويع والتبديل . . غالباً ما تستبد بي حركة العالم في

الدوامه الهائلة فاستحيل فيها الى رقم يتقافز ضمن الارقام ،
وتنتابني الكآبات كمرض ملازم ، واطل افكر بصور الأطفال في
البراءة التي تتأبى على الموت . . اطفال سونغ ماي واطفال
المخيمات اصدقاء الرياح والمطر والجوع واطفال بحر البقر الذين
كانوا يحملون قراطيسهم في الصباح الجهني ، وسيقان الميني جوب
في اللامبالاة الأخاذة التي تشكل ركناً هاماً في سلوك المواطنين
المتحضرين في المدينة « ن » . . الناس هنا يتحركون بقدر
مرسوم سلفاً . . الألوان الفاقعة استوردوها بجناناً ولطخوا بها
الأوجه والعمارات والسيارات وكل شيء . استحالت الألوان
قوانين ثابتة مادامت تستورد من مكان العالم الدوارة حيث
تصنع اسلحة الحرب مع دهان الوجه واحمر الشفاه والمساحيق
الاخرى التي تحيل الجلد الى قطعة ناعمة .

وانا هنا في المدينة « ن » ابحث عني . . عن وجهي . .
لا اجدني هنا ولا في اية زاوية من المدينة . لا ادري اين تستقر
« الانا » التي تخصني ، غير ان ابواب المدينة « ن » تواجبني
دوماً . . ابحث عني ؟ هذا كذب مدسوس وحقيير ، فانا ابحث
عن الصورة الاخرى ، ابحث عن امرأة اسمها « منال » لم اجدها
في اي مكان محدد بالذات ، غير ان صوتها يأتيني مهدداً بدفته
عروقي المتيبسة في الجسد الممصوص . . انا رجل مواطن في

المدينة « ن » املك قضية واحدة هي مبرر وجودي الوحيد ،
تاريخي وعلامتي الفارقة وسط ألوف العلامات ووسط احتشاد
الوجوه المصبوغة بالدهان . . « ومنال » امرأة لم أرها ابداً .
فقط اسمع صوتها المهدهد في ساعة من ساعات النهار . . بعدها
اعيش طافياً فوق سحابات الدخان والضجيج والمقاهي والحركات
المسيرة بفعل قوانين لا تقبل التبديل ومن خـلال ذلك يتشرح
الفرح كاليتيم .

وبده الحكاية اني - انا المواطن الذي يسافر الى الداخل
ليحقق مشاريع لقصائد النثر - في احد الايام كنت اقوم بعمل
لا يمت الى هواياتي بصلة اذ كنت اتصل برجل مجهول لا اعرفه
مطلقاً ولم يخاطر ببالي اني سأدير قرص التليفون لأتحدث معه
حول موضوع مكسر لقضية خطيرة . كانت لعبة فرضتها حالة
من حالات الأفك والدوران والسأم . . غير انني عندما أدرت
الرقم فعلاً وانتظرت بضع ثوان جاءني بفتة صوت امرأة . .

- « من تكون . ؟ »

- « كنت اطلب انساناً لا اعرفه »

- « ولكن لا يوجد هنا احد »

- « اعرف ذلك . »

- « وماذا تريد بعد ؟ »

- « دعيني اكن صفيقاً . . اريدك انت »

- « انك لا تعرفني . »

- « اعرف ذلك . »

- « هل انت وحدك ؟ »

- « اني اعيش الوحدة كمسألة مفروغ منها »

- « اتصل بي في وقت آخر . . هل حفظت الرقم ؟ »

حفظت الرقم ، وكأنه رقم هويتي الخاصة ، غير اني لحد الآن لم ازاول مهنة المرور الى المداخل الاخرى للمدينة ومعي الهوية . انا رجل مواطن مفتوح من جهات متعددة تتناوشني الترخوم البعيدة سالحة جسدي قطعة قطعة .

وفي الايام الاخرى ظلمت ادير الرقم لياتيني صوت المرأة التي اسمها « منال » . يهددني الصوت الدفي في لحظات اللعنة المنثالة علي ابدأ . .

- « انت مرة اخرى ؟ »

- « اجل . بدأت اقتات على المخاطبة معك . »

- « وانا كذلك . »

- « هل تعيشين وحدك ؟ »

- « انا اعيش الوحدة كقضية مفروضة علي »

- « لماذا تكون الصدفة عاملاً للتغيير ؟ »

- « فعلاً . . لقد تغيرت انا كذلك . بدأت انتظر لحظة

المخاطبة معك . »

- « هل انت مواطنة موجودة في المدينة « ن » ؟ »

- « في طرف مضيق منها . انت تتصل بي منها ، أليس

كذلك ؟ »

- « لا ادري . . ولكن ليتنى التقي بك . . »

وفجأة لا يعود صوتها صافياً متخماً بالدف الذي افتقده
في الساعات الاخرى بل يأتي اليّ منهوياً بفعل التفكير والانذهال .
المرأة تفكر . المرأة تعود مخلوقة مرمية في زاوية مهملة من
المدينة « ن » مسلوقة من الحركة والاختيار .

وفي الايام الاخرى ، بدأت انتظر الساعة الملائمة لأدير
رقم التلفون ، وانا أحمل القلق الجامح المدمر الذي يحيل الزمن
حرائق مدمرة . . لم تعد الايام لتكتسي باية لحة من اللون الشهير
سوى لون كلماتها على التلفون . . تبدأ الكلمات مظلمة بالدف ،
وتتهدج بالتالي فيما يشبه الانين المكتوم .

- « لم اسألك من قبل عن اسمك ؟ »

- « هل يهمك الاسم . انه لا يحدد الفكرة . »

- « فعلاً . . انك شمول معذب بالنسبة لي »

- « وانت ايضاً . . اسمع . . لقد ادركت انك شاعر . »

- « اجل . وكنت واثقاً انك ستعرفين . »

- « لم يقل لي اخذ . غير انني عشت حيدساً عجيباً بذلك

وادركت جانباً منك »

عشت معها هكذا ، سمعت مني قصائد كثيرة عشت مخاضها
بتفرد بينما كانت هي تستكين في رهبة على الجانب الآخر من
التلفون وتبكي احياناً في حرقه . . كان اسمها « منال » . . كان
صوتها هفيف شراع مسافراً في البحار الغارقة في السحب
المقيبة من ارض النار ومن مناطق استوائية حيث تفرع طبول
الليل . . كان اسمها « منال » . . وكان صوتها هو خبزي
وزادي في النهاية . . بدأت تتحول مستجيلاً لذيذاً لا يمكن
لي ان ألقاه الا في فجاج من الارض مجهولة لم تطأها
قدم . .

- « منال . . لماذا لا نخرج من مخبئنا في المدينة »

- « دعنا في مكاننا الآن »

- « يبقى وجهك هدفي . . »

- « وانت كذلك . . تتشكل صورتك هدفاً لي . ولكن ما

حيلتي . . دعنا نقف على اطراف المدينة بعيدين نتشوف الى
القادم الحبيب »

- « يا حبيبتي . . »

- « يا حبيبي . . »

ها انذا المواطن المتسكع في طرقات المدينة « ن » ازاول
مهنة الانتظار والوحدة والاندماج معاً . . اضحييت في وسط
الجشد املك وجهاً يحمل سمة العصر المليء بالكآبة . لا اجد مبرراً
للعلاقة بيني وبين الآخرين سوى صوتها ، ذلك الشيء الذي
يأتيني مثل نثيث الندى الناعم . والمرأة التي اسمها « منال »
تظل تنتظرني هناك على العدو الاخرى من المدينة . . وحدها
وحدها . . وكلانا يحمل بصمت - الخبز والزاد ، نلتم حوله
وتتقارب المسافات به واذا يتعاقب الصوتان عبر اسلاك التليفون
تذوب كأبات ايامنا كلها . .

عاماً كاملاً ونحن نقطع الرحلة ونحمل الزاد واليقين . .
قصائدي جميعها حملت خصب الارض . غير اننا كنا نبحث عن
المنابع فيما وراء التخوم . . وهكذا خاطبتها ذات يوم بعد ان
ادرت الرقم - الهوية . .

- « لم يعد لدي متسع للصبر . »

- « انا مثلك . . بحرقتي الصبر والمسافات . »

- « لنلتق ذات يوم . . »

- « سأكون بانتظارك يا حبيبي . لا بد ان نحقق لقاءنا

معها تكن الصعاب »

- « اين سألقاك يا حبيبتي ؟ »

- « ابحث عنى . »

- « ابحث عنك في كل زوايا الارض »

- « ستجدني اذن في العمارة المؤلفة من ستة طوابق في الشارع

الرئيسي المؤدي الى الباب الشمالي . . سأكون في الطابق الخامس »

- « في اي وقت ستكونين هناك ؟ »

- « في كل الأوقات سأكون . . ابحث عنى في الوقت الذي

يجل فيه العصر »

الحكاية الثانية : اللقاء

اتجهت الى العمارة المؤلفة من ستة طوابق في الشارع

الرئيسي المؤدي الى الباب الشمالي . . كان الوقت حوالي الثالثة

والنصف بعد الظهر ، اسبق الخطوات بشكل جنوني واعبر

الشوارع حاملاً بوجهها كيف يكون . . لقد حفظت في الماضي

صوتها حتى غدت نبراته جزءاً من الزمن الذي احياه مكشفاً

بالدوران والبحث ، بينما بقيت صورتها بعيدة عن التجسد الا

في المخيلة المكدودة الباحثة عن التشكيل الحقيقي للوجه والصورة

والمادة التي تحتل حيزاً من المدينة « ن » . . فكرت وانا في

طريقي الى العمارة القائمة في الشارع الرئيسي المؤدي الى الباب الشمالي ، فكرت في الطريقة التي سأهتدي بها الى « منال » . . هل سأهتدي اليها بمعرفة الصوت ام بالرائحة ام بلون خاص تتكشف هي عنه ، ام انها ستلوح لي كفنار قائم في وسط الجزر البحرية يهتدي اليه كل تائه آيب من تعب السفر . ؟ وفكرت ايضاً ماذا سأقول لها ، وكيف اضع بين يديها تاريخ حياتي ومن اين ابدأ ، والايام التي تقضت بيننا دون ان نلتقي الا عن طريق الرقم ، كيف سأطرحها بيننا وهي محملة بعبء الاحساس والانتظار والتوحد ؟ .

أزحت في النهاية افكاري المتصارعة المحمومة وانا اقطع الطريق ، وعزمت على أن يكون اللقاء بيني وبينها عادياً وطبيعياً ، ذلك لأننا عرفنا الأسرار منذ زمن ، واننا حينما سنتحدث في مكان ما لا اعرفه بالضبط غير انه ربما سيكون في الطابق الخامس من العمارة ، سنتحدث في مسائل صغيرة وبسيطة وبهيجة ، واننا سنضحك كثيراً كطفلين غريزين يغمرهما المرح الطفولي الى حد النزق . . ما عدت استطيع تصورها وجهاً يحمل نفس سمات الآخرين في المدينة « ن » . . صوتها هو الذي يدعوني في الداخل كنداء عميق محجب ، وصوتها هو الذي يظل نبرة ايقاع تفتح لي أبواب الرياح لتتسرب رخاءاً وأمناً وطمأنينة .

واجهتني العمارة بعد ان اجتزت كل الطرق والشوارع المؤدية اليها . . وكان الناس يحدثون بصورة آلية في مواقع متفرقة ويتطلعون إلى الملصقات الصورية الكبيرة لبعض الأفلام ذات الطابع البوليسي والمتوحش . . كان يخيل إلي انهم يشبهون هواية سرية من نوع ما شبيهة بتدارك الضعف والوهن الذي ينتابهم طيلة ساعات اليوم . . كانت العمارة مطلية بالصباغ في ثلاثة ألوان متقاربة ومتناسقة ، ولواجهتها بروزات هندسية تشبه المظلات المعقوفة إلى أسفل . . كانت العمارة توهي باحتوائها على اناس مختلفين تحتضنهم في عشق دافئ وتخيلت أية جدران ندية بالكرم تلك التي تحتوي « منال » في الصوت والصورة ، غير انني كنت قد وصلت الى العمارة متأخراً خمس عشرة دقيقة من الوقت ولذلك كان بعضهم ينصرف في لامبالاة وفي حياء بارد ، ويولي اكثرهم وجهه شطر جهات متعددة من المدينة . . ولاحظت قبل ان اقترب تماماً من العمارة ذات الالوان الثلاثة انها تقبع في ظل من الشارع يشبه أن يكون عتمة خفيفة لا تتشكل فيها ظلال الضوء ، ورجحت ان المساء هو الذي مد ظلاً من الدكنة الشفيفة تغلفت بها المداخل والممرات المؤدية الى العمارة .

وعند المدخل الرئيس للعمارة كنت احمل في قلبي هموم

سماعة غامرة وكأبة مداهمة تدافعت بغتة إذ سألتني بالوجه
الذي احلم به وبالصوت الذي احببته . وعند المدخل نظر إلي
أحد الرجال بعجب واستصغار وقال لي - « أين تقصد ايها
الرجل ؟ »

اوقفني فعلاً عند المدخل واضطرت ان أجيب - « انني اقصد
هذه العمارة بالذات ، واريد الصعود الى الطابق الخامس . »
قهقه الرجل بحمق وقال - « ولكن المصعد معطل منذ
نصف ساعة . » لم يثر ذلك أيما شيء ، واعتبرت تعطل المصعد
مسألة اعتيادية في المدينة « ن » ولذلك قلت - « لا يهم . .
سوف ارقى السلم »

مضى الرجل . ودخلت العمارة .

مضيت ارقى السلم متكئاً على الحاجز الحديدي . . هتت
عند الطابق الثالث قليلاً ، ولكنني عندما وطئت أرضية الطابق
الرابع بدأت الهت بقوة ، ووجدت حشداً من الناس يقفون في
جمود لا يريم ، واعينهم تتصالب على الباب الحديدي الموصد
باحكام حيث تسود الظلمة فوهة المصعد وحيث لا يرى ثمة أي
شيء ، وتمتد الفوهة الى الاعماق بشكل مربع .

كان الحشد يقف متزاحماً قرب الباب الحديدي ، وتدرجياً
تساعد اللفظ بين بعض الافراد وهم يتناقشون بحساد وآلية في

مسألة انقطاع التيار الكهربائي وتعطل المصعد . . وفي البدء
وقفت بينهم التقط انفاصي وانصت إلى بعض ما يقولون . .
كانوا جميعاً كما لو أنهم يتنزهون . ثمة في مواقعهم قرب باب
المصعد الجديدي الموصد . وخمنت انهم يشبعون هواية اخرى
تخلقها لهم المدينة « ن » الخالية من مناسبات النزهة . وقد
كنت قد تأخرت عن مواعيدي اكثر من عشرين دقيقة في لقائي
بالصوت الذي احب ، ولذلك كنت اريد ان اقفز مرة واحدة
الى الطابق الخامس غير انني سمعت أحدهم يقول :

- « كيف يمكن ان تبقى المرأة وقتاً آخر في المصعد . ! »

صلبتني عبارته في المكان . عدت احتشد بينهم واحتلب

الخبر كالمعتوه . .

- « اية امرأة تعني ايها السيد ؟ »

نظر إليّ بعينين باردتين متعاليتين وقال - « يبدو انك

طارىء على الحادث . .

هناك امرأة محصورة في المصعد منذ اكثر من نصف ساعة .

- « من تكون بحق الله ؟ »

- « لا ادري . . ثم انني ارجوك ألاّ تكثر الاسئلة فلا

شان لي بذلك »

- « معذرة . . معذرة . . غير انني ألتمس منك ان

تقول لي من تكون هذه المرأة ؟ »

- « ايها الأخ لا شأن لي بذلك فأنا لا أعرفها ، ولم أرها قط ، غير انهم يقولون انها كانت في الطابق الخامس »

- « ما اسمها . . لو سمحت . ؟ »

- « قلت لك لا تكن لجوجاً في أسئلتك . . أنا لا يهمني

اسمها . »

ران الصمت بين الختشددين وصمت أنا معهم ، وكانني أقسر أقسراً على ذلك ، وخيل لي ان الجميع يؤدون فجأة صلاة روتينية مليئة بالسخرية ، سئموا في الواقع كل ما يجري منذ انقطاع الكهرباء وتعطل المصعد ، ولذلك تهباً قسم منهم للانصراف على عجلة ، حينما دوت صوت المرأة المحتجزة في المصعد المعلق بين الطابق الخامس والرابع واصطدم بجدار المصعد وجدران الفوهة والحواجز الأخرى فترامى عبر ذلك جافاً مخنوقاً - « لا إذا لا تتحركون ارجوكم . . اعملوا شيئاً من أجلي . . الى متى ابقى معلقة هنا . . »

واقشعر جسدي منتفضاً بفعل الصوت الذي اعرف رائحته وأعيش نبراته . أزحت كل الختشددين وتقدمت ازاء الباب الحديدي . . لم أجد منفذاً أستطيع أن ألقى منه بصوتي المرتجف حتى الموت ، غير اني ابصرت نافذة الباب الحديدي

الموصد مغطاة بزجاج سميك . ألصقت عيني على الزجاج
ورحت احمق كعتوه . داهمتني الظلمة الكثيفة في فوهة المصعد
الفارغة وراعني مشهد المصعد المعلق إذ أبصرت قاعدته تعلو
فوق الباب الموصد ولا يبين ما في عن داخله عن ايما شيء . .
جمعت جسدي وصرخت بقوة - « من . . من هناك »

تهيب الرجال لأول مرة وتراجعوا قليلا الى الخلف .
احسست بحركتهم من خلفي ، وكان صمتهم يتحد مع صمت
الفوهة في الداخل حيث لا تسمع انفاسهم ثمة . . وخييل إلي
بشكل مباغت وأليم ان العالم ينحصر هنا في فوهة المصعد ويتقطر
برودة وخواء .

جاء الصوت نافذاً بصعوبة من خلال الجدران والباب
الموصد - « ولكن من تكون ؟ »

التفت إلى الحشد المتراص . . تحرك بعض الرجال
اللامبالين ، وابتسم قسم منهم هازئاً . . لم ابال بل كنت
أصرخ وحدي مرتعشاً - « أتكونين أنت منال ؟ »
وجاءني الصوت واللوعة - « من . . أنت . . ؟ يا حبيبي . .
يا حبيبي . . كيف أراك بعد الآن . . »

- « ولكنني هنا . . جئتك احم كل معايد الدنيا وصلواتها . »
- « كيف اراك . . بامكانك ان تسخر الآن . . »

- « كيف يمكن ذلك . . سأنتظر حتى تعود الكهرباء »

- « متى تعود الكهرباء . . انها مهزلة . انني معلقة هنا

بين الطابق الخامس والرابع . »

- « اللعنة على المصعد . . اللعنة على المصعد . . لماذا

استعملت المصعد ؟ »

- « كنت لا أصطبر على موعدا يا حبيبي . . عزمت على

أن أمبط اليك لألقاك في مدخل العمارة . »

- « اللعنة على المصعد . اللعنة على الكهرباء »

- « ولكنني أشتاقك إلى حد الموت . . كيف يمكن أن

أبقى معلقة هكذا . . »

حينما حولت عيني عن النافذة الزجاجية السميكة واستدرت

نحو الرجال المتجمعين وهم يرصدون علاقتي الفجائية المبالغتة

بما يجري داخل المصعد ، استباحني برودهم القاتل . كسدت

أتوسل اليهم ان يفعلوا معي شيئاً ، إلا انهم سرعان ما انصرفوا

غير مباليين . .

بقيت وحدي هناك . . بيني وبينها جدار من الحجر الأصم

وباب من الحديد ومصعد معطل معلق ثمة بين الطابقين الخامس

والرابع . .

تحركت كالشهيد بين الطابقين الرابع والخامس ، اصعد

واهبط . . ابحت عن طريقة ميكانيكية لانزال المصعد ، كنت
وحددي ، ولم يكن معي أحد يدلني على طريقة محددة . . ولم
أكن أدرك اي شيء أفعله غير ان اتخيل الصور تترى بجنون ،
ومنال تنتظر الخلاص . . تكثفت الاشياء واستحالت ضرباً من
العجز المهول ، ولم يكن قلبي قادراً على تحمل الالم وحدي ،
وتذكرت ان بيني وبين العالم والمواضيع علاقة قديمة
يمكن ان تتحدد الآن بقوة لتنتلق الحقيقة الناصعة الكامنة
في قلب كل مواطن في المدينة « ن » ولذلك انطلقت اعدو
خارج العماره والحلم الرائع يستغرقني . . تركتها معلقة هناك . .
انطلقت اعدو خارج العماره . . تمحشرج الكلمات الحارة في في
الجاف . . يتموج جسدي بارتعاشه الحلم المبلل بالخلاص . .
كنت اندفق في الشوارع مثلما تنتقل سورة الريح من مكان الى
مكان . . بت اصيح فيهم هؤلاء الناس الذين كانوا يتسكعون
كالموتى على الارصفة الخالية من السكرباء . . بت اصيح فيهم
أن يأتوا معي الى العماره وان نفعل شيئاً هناك . . لم يكن فيهم
من احد ليلتفت الى الصوت الذى يترامى في فراغات الشوارع .
كانوا جميعاً تتأكلهم اللامبالاة وها هي اصباغهم تزول عن وجوههم
ويبدو الواقع مقفراً . . عدت بينهم موضوعاً قابلاً للرصد
والدراسة بخياد وموضوعية ، وفعلاً وجدت قسماً منهم يلتفتت

الي في استفراق ذاهل ومتوحش ليتفحص الظاهرة الغريبة التي
كنت اشكلها بعناد ومضي . . ابتلعتني الشوارع في النهاية ولم
أعد لأجد احداً رغم كل الوجوه العابرة على الارصفة . . هبط
الظلام ، بينما كنت مستمراً في العدو . . خلت الارصفة تدريجياً
من السابلة . . بدأت المدينة « ن » تصفر في السكون والعتمة . .
بقيت أعدو بين كل المنعطفات ، وكانت هي معلقة هذه المرة
في رأسي كحلم محوم .

خرجت الى تخوم المدينة . . اجتزتها . . واجهت الصحراء
وحدي ممتدة إلى اللانهاية ، وعندما مس وجهي المعفر تراب
التخوم ، كنت اسمع انين الارض . .

صهيل على السلم

حينما أخبروك بالنبأ وطلبوا منك المجيء فوراً ، قالوا لك إنه يريد ان يراك ويكلمك في أمر خاص بينك وبينه ، وانه ظل يصر من خلال انفاسه المتعثرة على ان يبحثوا عنك كل الاماكن والزوايا والمقاهي الرخيصة والشوارع في بغداد . . . حيثما انت . . . يجب ان يطالوك ويأتوا بك ، وايضا كنت يجب ان يسحبوك سحياً لكي تلتقي به مرة اخرى بعد ان قطعت بينك وبينه السنون الطويلة ، وتركت بينكما حجاباً ثخيناً مثل ركامات الجليد فوق قلبك المغموم . . . وعجبت يا « عزيز سلمان » كيف مر اسمك من بين كل الاسماء في ذاكرته المعطوبة المغلفة بالخلل . . . كنت لحظتها تقبع في المقهى الصغيرة حيث يعلو دخان السيكاير في الجو الخانق الرطب ، وحيث تجالس المخدرين . . . وتعاقر أسلوبهم الخاص في الحياة والتفكير . . . وسمعت لأول

مرة بعد أن تحدثوا اليك بكلمات قصار سريعة أنه ربما سيموت
الليليلة . ولم يرف لعينيك جفن ، فما أقرب الموت من الناس
في نظرك وما اكثر الناس الذين يمارسون عملية الموت كل
دقيقة وهم مفتحو الأعين وفي صدورهم تدق القلوب كساعة
خرابة متآكلة . . . وكذت أن تضحك من عقولهم وان تطلق
القهقهات وان تسخر أمام وجوههم الصافنة مثل وجوه البغال ،
ولكنك بدوت ازاءهم مهذباً وقلت لهم دون ان يتحرك قلبك
- « ليمت إذن . . . ما علاقة ذلك بي . . . ثم . . . دعوني
أسألكم ، لماذا يطلبني بحق الله . ؟ »

سمعتهم يقولون بحرارة - « أنت تعلم اننا بحثنا عنك وقتاً
طويلاً . . . وها أننا نتوسل اليك أن تأتي . . . »

ومرة أخرى مرت في صدرك موجة عاتية من الضحك
حاولت أن تخنقها امامهم ثم هممت - « أنتم جميعاً غريبو
الاطوار . . . حتى هو . . . ذاك الذي يموت الآن . . . تقولون
انه عمي ، أليس كذلك . ما علاقته بي وهو يموت ؟ »

وجاءتك اصواتهم متلجلجة وسط المقهى الصغيرة - « انه
عمك . . . لن تستطيع أن تقول انه ليس بعمك . . . نحن
نتوسل اليك أن تأتي . . . »

وتحاملت يا عزيز سلمان على قدميك المتآكلتين من طول

ما تقطع من شوارع ودروب وأنت تعيش على الهامش حياة
التشرد باصقاً على الوجوه التي تمر بك ، تحاملت ونهضت معهم
وكانك نعجة تساق إلى الذبح وما زال تتدافع موجة الضحك
والهزء في صدرك المخسوف من السيكاير . . . لم تبادلهم كلمة
واحدة طول الطريق ، فأنت لا تختص بعاطفة تجاههم ولم تفكر
فيهم لحظة واحدة منذ زاولت قطع الشوارع الذليسة وامتهنت
المخدرات في المقهى الصغيرة . . . مضوا بك يتعجلون في
خطاهم وخيل اليك ان اقدمهم تلتف كالثعابين الصغيرة على بعضها
وهي تتضارب على الطريق وكدت أن تفهقه ثانية ورحت تتساءل في
بهجة تملكك بقتة - هل انا مهم حقاً بحيث انهم يحيطون بي كشيء
ثمين . . . يالهم من حقي . . . « سعدوا بك إلى غرفته وأشاروا
قائلين لك - « انه يرقد هناك » وحاولت ان تتذكر ملاحظته
المدفونة في ذاكرتك المخدرة ، وان تعثر على وجهه الذي
كنت تحفظه في الماضي ونسيته في غمرة نسيانك لأشياء كثيرة.
كان السلم طويلاً لم يتغير منذ تركته في زمن غابر ، وبدأت
تصعده لاهثاً معهم ولأول مرة أحسست بانك مهم حقاً وإلا لما
طلبك وألحف في الطلب ، ولم تعر لأحاساسك بالأهمية قيمة
تذكر وتمنيت لو يسحق هذا الاحساس بحدائك ، فلم
يعد لهذا من ضرورة ككل الأشياء في نظرك حتى لو تحقق لك من

مواجهة عمك نفع كبير يبدل حياتك كلها . . وفي وسط السلم
تذكرت كيف كنت في الماضي تصعده وتهبط منه كالغزال
« وحليمة » تتمقل في بيت عمك مثل نسمة الصيف النازلة في
اعماق الليل الحمل باللهيب . . . كنت تقول لها دائماً - « حليمة
البقلاوة » وتكررك حليمة بالضحك وتضربك على قفاك وتستحي
في خفر يدبر عقلك ويصعد في عروقك الدماء . . بلغنا معا
في تلك السنين مبلغ الصبا وعشمتا جنة الحياة ولعبنا كل اللعب
التي تخطر في بال الأحباب وهم صغار كالحملان الصغيرة . .
وفي ذلك اليوم الذي كدت ان تنساه يا عزيز سلمان كتبنا على
جدار السلم المغطى بالسخام خطوطاً كثيرة متعرجة ومنحنية
ومستقيمة وسجلنا اسميكما وانما تعيشان . . ثم اخذوا منك
« حليمة » وسرقوها من يدك كما تسرق الدرّة الغالية واعطوها
لغيرك وسمحوا قلبك سخما وطرودك . . وكان عمك يومها هو
الذي قرر طردك من البيت ، وهكذا بدأت حياتك الراهنة
منسياً في زاوية من العالم . . تف على المقادير كلها يا عزيز
سلمان . . اردت ان تتلصكاً في وسط السلم محدقاً في الاسمين
حتى عثرت عيلهما مدفونين في السخام . . ولكنهم لم يترثوا معك
ومضوا بك يصعدون السلم وانت تلهث بصدرك المتعب وعينك
على الجدار كلما خوذ . . وفي الطابق العلوي رأيتك ممدداً على

سرير حديدي متآكل وفراشه مبقع بأثار مقرقة . . حدثت
في وجهه طويلاً وسخت في لون الصفرة الباهت وهو يحط على جلدة
وجهه كالقراد . مرة أخرى أردت ان تقهقه كالمأفون وتساءلت
- « لماذا أرسل يطلني هذا الوجه الميت ؟ » تجمعوا من حولك
وأحدقوا بك وأحسست أن في حضورك إلى هنا مؤامرة تسعى
إلى قتلك والاجهاز عليك يا عزيز سلمان . . تراجعت الى الخلف
كالمصعوق وكدت ان تتقيأ ، ولكنهم ظلوا يُحدقون بك ويلتفون
حولك كالمعصم ، كان عمك من دونهم مطبقاً على نفسه كالموت
نفسه حينما يجثم بعناد ، وما هو يموت فعلاً . . ملاً اذنيك
الصمت المطبق بآلاف الاصوات الخفية وتداعى اليك ضجيج غير
مسموع بالمرّة ، وتخيّلت مخالب التنين تنشب أظافرها القوية
في عنقك وتعصرك عصرأ ، وصرخت أخيراً بالجمع الذي يحيط
بك - « لماذا جثتم بي إلى هنا . ؟ » كان صوتك قوياً يقتحم
غشاء الموت المرين ويهزه . ردّ عليك الابن الاكبر بجفء
- « لاتكن أحق . . لقد طلبك وكفى . »

قلت لهم باصرار - « ولكنه يموت . ما نفعي به وما نفعه

بي أيها الاوغاد السفلة . »

وسمعت احد ابناؤه يقول لك بازرداء - « انت مجنون

وستبقى مجنوناً حتى تلفظك الأرض . . ما دخلنا نحن . . لقد

طلبك هو . . . »

قلت لهم وكانك تستغيث - « ولكنه ميت ميت . . . ألا ترون . . . » قالوا لك جميعاً في صوت واحد وخيل اليك ان جوقة من الشياطين تطلق اصواتها في حضور الموت - « قبل ساعة كان يلفظ اسمك ايها المأفون » قلت لهم وقد أحسست بالموت فعلا - « انتم المأفونون . . . انه يموت انه يموت . . . »

أحدقوا بك وتحركوا باتجاهك والتمعت أعينهم وزجروا في وجهك - « حتى وهو يموت . . . يجب ان تبقى هنا . . . »

ودار لسانك يابساً في حلقك ولم تستطع ان تتكلم بعد .. ركضت خارج الغرفة المليئة برائحة الموت ، وتعثرت قدمك بالعتبة وكدت ان تقع . . . اندلقوا وراءك مثل شلال أبكم جارف . . . كان السلم يضج بأحديتهم من ورائك واصواتهم تأتيك متداخلة فزعة يضخمها رعبهم المسعور . . . دفعت جثتك المتهاوية على السلم واصطدمت عينك - لا تدري كيف حدث ذلك - بأثار « حليلة » التي أبقاها الزمن العجيب على الجدار ولكنك خلقتها مسرعاً وقد احتاج في قلبك الفرع كالعدوى ، وأطلقت للريح جسدك الميت وبقيت تركض كفرس جاححة وهم يركضون خلفك كالريح المزججة ، وكانت الشوارع والطرقات التي تطويها قدمك تدور كدوران مروحة وبقيت تدور وتدور...

المحاولة

في غرفتي البائسة اللامبالية حيث تنتشر رائحة العفن
وتخربش اقدام الفئران عابثة بالقطع الصغيرة والزنخة التي
اخلفها من الاستعمال اليومي دون ان اكلف نفسي مشقة ازلتها
ورميها الى الخارج . في داخل هذه الجدران الكابية المفقفة
كعجوز تجمدت اطرافها وحيث يمتد الظل الحمل برائحة الرطوبة
والبلل ، قررت بشكل حاسم ولأول مرة في حياتي المهمة كشيء
زائد عن هذا العالم ، قررت ان اتزوج من « مديحة » زميلتي
في الدائرة التي اعلم فيها كاتباً قميئاً للصادرة والواردة . . ترددت
مرات ومرات دون ان اتوصل الى حل ناجح لعلاقتي العجيبة
معه . كانت تتعمد ان تتجاهلني اثناء الدوام ، وكانت تبدو

متوحشة اخاذة في شكلها المتحفز للعداء والذي يرسم بوضوح
فوق وجهها الصبياني . . كما انني اظل بالنسبة اليها موضوعاً
قابلاً للنقاش فيما لو طرحت المسألة على نفسها وقلبها على اوجها
المختلفة . . ولم لا . . ألا ابدو رجلاً مليئاً بالتعاسة والبؤس
والخواء وانا اعيش مستمراً كعربة فضائية دائرة الى الابد في
دائرة فظيعة من الفضاء المجذب . . وبعد ان حسمت الموضوع
مع افكاري المبعثرة ، ذهبت مساء نفس اليوم الى الخانة التي
ارتادها على الدوام ، والتقيت بعيني « حنا » الشاب ذي الملامح
الانشوية الذي يوزع المزة بسخاء مفرط ويبحث عن راحة السكرى
ويعرف بالغريزة من يدفع ومن لا يدفع . .

ابتسمت في وجهه بمرح ، قال لي بمكر - « كيف يمكن
ان تبدو هكذا . ؟ »

زعمت في وجهه بمرح ايضاً - « اللعنة عليك . . حنا . .
سأتزوج قريباً وسأسكر بهذه المناسبة »

فتح فـه الصغير الدقيق وبيانت ملاحظه انشوية حادة
- « كيف تتزوج . . عليك ان تؤدي حساب البار اولاً . »

قهقه « حنا » وحده مستمتعاً باستقلالية عالية تبعده عن
تصنعي لحالة المرح التي بدأت تتفاعل في اعماقي مشوبة بصوت
الخوف الذي يشلني احياناً ويشعرنني اية وحدة رهيبه اعيشها مع

الآخرين . . قهقهت معه وقلت له بصوت البؤس السذي اعرفه
كصديق - « لا عليك يا حنا . . طلب البار سأؤديه حتماً . .
وسأزوج بعد ان اقدم طلباً الى الدائرة بمنحي سلفة جديدة . . »
عدت آخر المساء ذاك ، مخموراً واعتكفت في غرفتي احاول
أن اثير دوافع الخيال وامتد فيه الى اللانهاية واحلم بصمت
حقيقي . . العالم هنا في غرفتي يدور كما يدور المغزل الذي يدور
ثم يقف ليدور ثانية . . عالمي حدوده تقف عند نقاط العزل
القاسي عما يجري هناك في الحياة التي يمارسها الناس الآخرون . .
وعندما فكرت « بمديحة » قلت لنفسي اني ربما سأودع هذه
الغرفة واتصل بالآخرين واصبح سوياً . . في الماضي كنت
اتصل باشياء عزيزة ثم بعدت المسافة الزمنية بيني وبينها وتجمدت
حتى باتت عندي احجاراً من الذكرى لا تثير ادنى عاطفة ، ولا
ادري اليوم هل لا تزال الاشياء العزيزة لها قدرة الدوام ام هي
توقفت عن الحياة كما يجري في عالمي هنا . . ابي وامي مثلاً . .
كنت احبهما ، وعندما كبرت عن الطوق رفضت وصايته ذلك
الرجل الذي هو ابي ورفضت ثقل حنانها الدبق تلك المرأة التي
هي امي ، انفصلت عنهما دون دافع محدد غير دافع الانسياب
خلف اسوار الأماكن المحملة برائحة الشوق في المدينة التي تعوي
بالجذب . . لم اجد شيئاً من بعد . . اصابني البؤس كمرض

متأصل واعتدته كصديق ، وتشردت حتى سمعت بموتها وحيدين ..
حزنت عليها ساعات قليلة وظلت ذكرهما عزيزة ، ولا ادري
ماذا بقي بعدهما وماذا يمكن ان يكونا قد خلفا من اشياء ،
وان كان لي يقيني بانهما لم يكونا يملكان شيئاً ذا بال . . كل
ذلك وحريق الحياة اللائبة التي ادور فيها كثور الساقية يؤججني
دوماً ويرميني وحدي في اتون التجارب المتفردة الفائقة .

في صباح اليوم التالي كانت عطلة « الجمعة » . استيقظت
مبكراً شاعراً بنشاط خارق يتمشى في اضلعي ، وصحو ناعم
يتسرب في مسارب عقلي المكدود . . اجريت حلاقة لذقني المهمة
وعزمت على الذهاب الى حلاق مغمور في الزقاق الذي تقع فيه
غرفتي ليسوي لي شعري ، كما اخرجت بدلة قديمة احتفظ بها
لبعض المناسبات الطيبة التي يتواجد فيها العرق والمزة . وعثرت
بين الملابس المصفقة في الدولاب الخشي المتهرى على المسدس
القديم وبجانبه بضع طلقات قد تكون فاسدة . . تلمست نعومة
الحديد واقشعر بدني قليلا وتذكرت ابي الذي سرقت منه هذه
القطعة القديمة من السلاح . . لبست البدلة المضمخة برائحة
ماض ما ووقفت ارى نفسي وهيئتي وقد تغيرت نسبياً عن المظهر
اللامبالي الاول وعجبت كيف ابدو بهذا الشكل الغريب المنقطع
عن الحاضر بحيث يبدو الفرق الزمني هائلا هنا في حدود المكان

الذي أقف فيه . . . وتخليلت « مديحة » تبتسم في استهتار صبياني وتحتضني في جنون احق . . . ليكن . . . عرجت على الرجلين اللذين قررت ان اصحبهما معي الى الأب لأطلب منه يد « مديحة » . . . لا بد ان اصطحب معي اناساً آخرين غيري . . . والرجلان اعرفهما معرفة طفيفة هزيلة وقد تبادلت معهما في بعض المناسبات كلمات عابرة تافهة ولا اعلم من امرهما شيئاً ولعلمها على الاكثر لا يتكلمان كثيراً ولن يتكلما معي في امر الخطبة غير انها محبان بشكل جنوني للفضائح الشخصية ، وقد قلت في نفسي ان حضورهما معي يفرض توافقاً اجتماعياً يرتضيه الاب . . . وهكذا اصطحبتهما معي . . . ورحت اراجع نفسي اي حديث سأطرحه على الاب في طلب يد ابنته ومن اين سأبدأ في هذا الحديث الذي اجعله تاماً . . .

الادانة

ظل الرجلان اللذان اصطحبتهما معي صامتين رافعين رأسيهما باستقامة واحدة مثل جملين يسريان في هدوء الصحراء عبر كثيب الرمل . عجبت لأمرهما ونحن نقطع الطريق ، دارت في رأسي عبارات مضطربة عن موضوع الخطبة كنت اريد ان القيها على

مسمعيهما واسترشد بما يقولان علي انهي الاضطراب السذي اعانيه ، ولكنني لزمتم الصمت مثلهما ورحنا نقطع بقية الطريق الى بيت الأب .

حينما طرقتنا الباب لبشنا ننتظر لحظات ، وخيل اليّ انه يتحدث مع ابنته كما لو انه يسوي اللمسات الاخيرة من رتوش الصورة التي سيواجهني بها . . اطل الأب من فتحة الباب الموارب وقطب في وجوهنا ثم اوسع لنا الطريق وغمغم يبضع كلمات تساقطت بعجالة .

في غرفة الاستقبال الصغيرة اتخذت مقعدي في الزاوية المقابلة لباب الغرفة بينما جلس الرجلان في مكان الصدارة واتخذنا مظهر الرزانة والتزمت وظلا صامتين وقد زما شففتيهما وبانا كتمثالين من شمع متجمد . فركت يدي اكثر من مرة وطامننت من سرعة انفاسي وتطلعت خفية الى وجه الأب .

كان يبدو صعلوكاً ولكنه نظيف المنظر ، ذلك ان وجهه كان مغطى ببقع من آثار مرض الجدري تتخلله كدمات سود تنتهي الى حواف بيض لعلها بسبب مرض جلدي لا اعلمه ، وكانت عيناه صغيرتين تنتقلان بيننا كعيني صقر مدرب .. رحب بنا بجمل قصيرة ، ثم نهض يقدم لنا من علبة سيكائره ، وما عثم ان نادى بصوت ضخم يستدعي ولده الصغير ليقدّم لنا الشاي .

قطع الصمت ملتفتاً اليّ وابتسم لأول مرة - « في يوم الجمعة أوثر أن ابقى في البيت ، فانت لكي تشعر بيوم الجمعة كعطلة حقيقية عليك ان تبقى في البيت . . »

ابتسمت واعتبرت ذلك بديهية لا تقبل النقاش واندفعت بحماسة مشدداً على مظهري الكلامي اقول - « طبيعي . . انه يوم له امتياز خاص عن بقية ايام الاسبوع . . حقاً . . يكاد ان يكون له مذاق خاص » .

التفت الي متعجباً - « مذاق خاص . . كيف ؟ »

حدقت فيه لحظة اتبين مقاصده - « اعني ان ليوم الجمعة مزايا عديدة تجعل له تفرداً يختلف به عن بقية الايام . . .
أليس كذلك »

- « هاه . . انك لم تقل شيئاً رغم ذلك . . على اية حال انا شخصياً اقضي اغلب الساعات التي يتوفر فيها الفراغ في المقهى مع شلة من الاصدقاء ونلعب الطاوي . . . هل تلعب الطاوي ؟ »

- « ليس دائماً . . احب ان ألعبه في بعض الاوقات »
سكت لحظة ثم اندفق يقول - « اتعلم . . لقد انبثت من احد الاطراف بالهدف الذي جئت من اجله . »
وابتسمت وانا اللاحق انفاصي بصعوبة . .

قال بعد ذلك بصوت بارد - « لقد سألت عنك قبل
بجيتك بيوم . »

تململت في مجلسي واتجهت عيناى دون ارادة الى الرجلين
الصامتين .. سمعته يستتبع - « أايكون سالم حمزة هو أبوك ؟ »

قلت له على الفور - « نعم .. انه هو ابي »
- « ألم اقل لك .. لقد سألت عنك .. واهتديت الى ان
اباك هو سالم حمزة . »

- « نعم يا سيدي ، ولقد توفي قبل اكثر من اربع
سنوات .. أتعرفه ؟ »

- « ربها أعرف عنه الشيء الكثير . »
حملت في وجهه المجدور واعتبرت ذلك استهلالا حميدا للدخول
الى الموضوع الذي جئت من اجله .

سألني من بعد - « قلت متى توفي . ؟ »
- « قبل اكثر من اربع سنوات »

- « لشدما تقطع بالانسان السنون .. كم كان عمره وقتذاك ؟ »
- « لا ادري بالضبط ، ربها كان يربو على الخمسين .. »
- « واملك . ؟ »

- « هي الاخرى توفيت من بعده »
- « أتكون إذن وحدك الآن ؟ »

- « أنا وحدي قبل وفاتها . انفصلت عنها قبل ان يتوفيا »
- « ولكن لماذا . . ذلك شيء مؤسف ومؤثر »
- « ولكن يا سيدي ما هو الشيء المؤثر ؟ »
- « يبدو انك لم تكن راضياً عن حياتك معها »
- « آثرت أن أكون وحدي »
- « هاه . . دعني أسألك سؤالاً يخظر ببالي الآن ، هل استمر أبوك يزاوول مهنته تلك ؟ »
- اضطربت قليلاً - « ظل يزاوولها ثم لم يعد يستطيع على الاستمرار فيها فأثر ان يعمل دلالاً للدور »
- « أتعلم . . انني اذكر القصة التي حصلت لوالديك قبل زمن طويل . . ربما انت لا تعلم شيئاً عنها الآن ، ولكنني اذكركها الآن جيداً كما لو انها حصلت امس . »
- « أية قصة يا سيدي . »
- « هاه . . يبدو انك لا تفكر طويلاً بالماضي ، أو انك لم تسمع بها مطلقاً »
- « انا لم اسمع باية قصة يمكن ان تثير لدي الاهتمام . . ويبدو انك عاصرت احدائاً لم أكن انا قد ولدت حينها بعد »
- وقهقهت بمرح ، ولكنه رمانني بنظرة باردة فارغة من ايما
- دق* - « لا تضحك . . المسألة برأبي لا تستحق الضحك . . »

واعنرني ايها الشاب ، فقد قلت لك منذ البداية اني سألت
عنك بعد ان علمت انك تريد يد ابنتي مديحة ، وعندما عرفت
ان اباك هو سالم حمزة فانه يترتب علي ان اذكر لك ذلك »

- « وماذا يصيرني يا سيدي من ذكره . . انه هو ابي حقاً . »

- « ولكن ألا تكون قد عرفت شيئاً مما حصل في الماضي ؟ »

- « كلا يا سيدي . لا أعرف شيئاً »

- « هاه . . ربما لم يخبرك احد بذلك أو أنك لا تعطي

للماضي قيمة . ما »

- « ليست لي صلة بماضي اعترز به وقد نسيتته . . ثم ان ابي

لم يحدثني بأي شي * »

- « هاه . . اذن فهو لم يخبرك حقاً ؟ »

- « كان قليل الحديث معي وكان يريد ان يفرض ظله علي . »

- « هكذا اذن ، ولكن لا يعقل الا تكون عالماً بطرف بما

حصل في الماضي يا بني . . انا لا اقصد الأساءة اليك مطلقاً . .

لا . . . ولكنني هنا ابحت معك موضوعاً ربما يتصل بك وانت

تطلب يد مديحة ولا ادري إن كانت بينكما علاقة تفاهم في

الدائرة أم لا ، غير اني يهمني ان اذكر تفاصيل ما أعرف عن

القضية . »

- « ولكن أية قضية يا سيدي . . انك تشير هواجسي »

صعد الى قمة رأسي نظرة تشبه ان تكون استعلائية ووقحة
وابتسم دون مبالاة . « لا تقلق ايها الشاب . . ، دعني اقول لك . .
لم تنقل اليك امك شيئاً ما ؟ »

بدأت اعاني انحصاراً هائلاً الى حد الاختناق ، وفضاء
الغرفة يستحيل خرم ابرة ، وصداع رأسي يعاودني بضربات
متلاحقة من آثار العرق الذي شربته في اليوم السابق ، واحسست
انني انسحق تحت وطأة الدقائق الموهلة التي يفرضها عليّ الرجل
على شكل كلمات متلاحقة صاعقة ، حتى اجبته اخيراً وكأنني
استسلم اليه - « كلا . . كلا ياسيدي . . عفوك ايها العم . .
لقد كانت امي امرأة رحيمة حقاً ولكنني لم اكن احتمل حنانها
بالصورة التي كانت توجهها إلي » .

- « أسمع إذن . . أتكون امك هي فاطمة صادق ؟ »

- « أجل . . أجل إنها امي »

- « لقد تزوج ابوك منها بعد ان اتصل عن طريق المعاملات
التجارية ووكالات الأعمال الخاصة بصادق الحسن الذي اشتهر
ببيع الدور وشراء الاراضي »

- « نعم ربما أعرف شيئاً قليلاً عن ذلك . . »

- « حسن . . إن أباك استطاع ان يقنع صادق الحسن

بالزواج من فاطمة التي رباها هو وزوجته المسماة رجاء »

- « تقصد فاطمة امي .. »

بادر يقطع عليّ بحال الحديث ، وانهر كسيل متدفق
يضحك في إستهتار - « ولكن لا اعلم ان كنت انت نفسك تدري
ان رجاء هذه هي جدتك حقاً؟ »

احتواني الانشدهاء وتمتمت كالمصعوق - « تردد اسمها على
مسمعي في ماض بعيد لا اذكره .. وماذا يهم ذلك »

- « ولكنها ايها الشاب ليست جدتك الحقيقية . »

شعرت باللهيب ينصب في جسدي .. التفت جهة الرجلين
الصامتين المترمتين ، كانا يواصلان جلسة المهابة دون حركة . .
كنت وحدي اعاني الحصار وقد تركني الآخرون ..

استتبع الرجل - « لا تقلق يا ولدي .. انها في الحقيقة
ليست جدتك فعلاً .. ذلك ان صادق الحسن وزوجته رجاء هما
الذنان ريبا والدتك فاطمة كأي برجوازيين حقيرين »

صرخت في وجهه - « اية اخبار ملفقة تقولها انت . »

جمع كفه و اشار الي يوقار ان اهدأ واحسست بنذر الوعيد
تتجمع في عينيه وتستحيل ركاماً من التراب العابق بالجيف
- « لا تثور بسرعة .. كيف يمكن ان تفهم ايها الشاب وانت
بهذا الحال من الثورة .. ان صادق الحسن كان غنياً حقاً ولكنه
لم يكن يرزق بولد من زوجته رجاء .. كانت هي العقيمة كل

العقم ، واستمرا هكذا زمناً طويلاً حتى اكتشف الامر «
زعقت مرة اخرى - « ولكن اي امر ايها الرجل »
حدد إلي نظرة صاعقة وقال معانداً - « قلت لك لفهم
أولاً . . ان صادق الحسن كان قد أقام علاقة من نوع ما مع
أمرأة خادمة بائسة اسمها سليمة . . نعم انني اذكر اسمها جيداً ..
هل سمعت بهذا الإسم ايها الشاب ؟ »
قلت له بانهميار تام - « ما سمعت به . . اي شيء تريد من
ذلك . . انك تهينني .. »

- « انا لا أهينك ، ولكن الامر هكذا . . ان سليمة حملت
من صادق الحسن بنتاً ولدتها في السر ، وقد علمت بذلك
زوجته واثارت في وجهه ، ولكنها كأي برجوازيين حقيرين سرقا
البنات من الأم الحقيقية وامتلكاها الى الأبد دون أي مقابل »
كدت ان اختمق ، وامتدت أصابعي إلى أزرار السترة
وأحسست بعرق غزير يغرقني والتفت مرة أخرى الى الرجلين
أطلب منهما العون ولكنهما كانا صامتين كالجبال .

سمعته يقول لي عبر ركام من ضباب ثقيل ران فوق عيني
- « تصور ايها الشاب . . لقد ربيها منذ الصغر ، ولم تكن
فاطمة تعرف امها الحقيقية ، وقد تكون قد علمت في النهاية
ولكنها كانت تحتقرها بقسوة » تمتمت في سري حزيناً كل الحزن

- « عليك اللعنة .. عليك اللعنة ايها الصعلوك . » احسست
بما جتي الى بكاء حارق طويل وعدت أردد في سري بحرقة واغتراب
- « طعننتي .. طعننتي حتى الأعماق » صار حديثه يأتيني من
مسافات خرافية - « تصور ايها الشاب .. ان صادق الحسن
وزوجته اعطاها بعد ذلك لوالدك بسهولة ويسر رغم ان أبك
كان فقيراً »

صرخت في وجهه مستوفزاً ومنهاراً - « انك تلفق الأحداث .
انك ملفق حقير »

- « لا تقل عني ذلك .. أنت رجل لا تقيم اعتباراً
للماضي أو أنك تتعمد احتقاره بنفسك .. لماذا .. تصور إنك
بمكاني في هذا الأمر الذي جئت من أجله فماذا كنت تصنع .. »
حرقته بنظرتي الهائجة ، حاولت ان أقول له من بعد
شيئاً فعييت .. عييت حتى لفني صمت شبيه بصمت الموتى ..
عصرتني اليد الهائلة وارتميت وحدي كجسد خائر فوق ارضية
الزمن الفادر العصف ، وبدأت أتحوّل رويداً في داخلي الى
رمم موصومة بالجرب والقيح ، كان فحيح الألم يصعد بي وأنا
الشهيد الشهيد ، يصعد بي حتى اشهق واصيح - « آه .. آه ..
آه .. آه .. آه .. آه .. »

لقد طعنني النذل حتى الأعماق .. ايها الناس اني وحدي

هنا اغترف الصديد « وتلفت كالمعتوه نحو الرجلين ، اطلب منهما ان يحملاني بعيداً بعيداً ، ولكن لا فائدة لا فائدة . . . اصبحت جسداً يمتص القيح ويفرزه . . . تساقطت من فوق المقعد ثمرة فجة عجفاء . . . اغرق في ضجيج الكلمات وطنينها . . . أنغمر في مستنقع الشيء الذي ينبعث الآن كالعملاق الساحق ، وزعقت في آخر الامر كحيوان جريح - « انكم جميعاً ملفقون حقيرون مزيفون . . . مزيفون مزيفون »

التنفيذ

ما عادت لي من رغبة غير ان اتوجه اليه في اليوم التالي لأقابل وجهه واتمعن مصطبراً في الملامح التي ستتكون قبل تنفيذ العمل وبعده . . . تصورت انها ستكون ملامح رجل نبي كاذب أو ملامح رجل يتوسل حتى يركع على قدميه . . . تصورتها قاسية الى حد الكفر . . . تصورتها تطلب الاستغاثة دون مغيث . . . كانت قطعة السلاح طي الملابس العتيقة المصففة في الدولاب الخشي المتهرىء في غرفتي البائسة الحقيمة الكابية الجدران ، تلمستها للمرة العشرين أو الألف لا أدري ، واحسست بقشعريرة باردة كنصل ينزل صاعقاً في خاصرة الانسان وقلبه . . . قطعت

الشوارع المؤدية اليه . صخب الشوارع يتحول في اذني هدير
طبول جائحة ينفثها قلب المدينة النائمة على الجروح . . . زاولت
في الساعات التي سبقت العملية كل ضروب النزق وأنا أتذكر
الماضي الدافي' المغلف بالحنان . . . هيه . . . وصلت إليه وكان
هو بغيقي في آخر الشوط وليس غيره من ابتغيه يا ايام الماضي
الدافئة المغلفة بالحنان . . . قطعة السلاح التي سرقتها من ابي
في الماضي تستقر في يدي وتتوجه هي بحركة نحوه . . . أتمعن فيه
طويلاً طويلاً . . . كان وجهه ثابتاً لا يزال . . . أخذني العجب
كيف يمكن للوجه الذي أداني ان يستمر بهذا الثبات . وعندما
ضغطت على الزناد ظل الوجه ثابتاً قاسياً موجهاً الي النظرات
باستقامة متحجرة لا تريم .

الرماد في اللون الأزرق

في الشارع ، وامامها حيث كانا يتجهان اليه بخطواتهما
الوثيدة اللينة كان نصب الجندي المجهول يلقي بظله وارفاً عند
أقدام السور الذي يحيط بالمسجد ثمة . . كانا يحدقان امامهما
بانشغال موصول ، وبلذة منتشية خفية . . وفي اتجاء النصب
ظلا يقطعان بقية المسافة بعد أن خلفا وراءهما مئات الامتار
كانا وطأها بتشبهت وحضور دائم . كانا يعيشان حضوراً مكثفاً
بانبعاث المشاعر التي ظلت دفينه بينهما سنوات . . كان الوقت
بعد الظهيرة ، وكانت الازهار التي تفتحت في الربيع قد بدأت
تذوي الآن مخلقة أياماً مترعة بالعبر الندي المتبقي من
آثار شتاء منصرم ، أشعل سيكارة اخرى وأجج تبغها
بأنفاس عميقة متلاحمة . تملكه إلحاح آخر في ان يمارس
معها عملية المحاصرة ذاتها وان يلقي فوق رأسها بأسئلته اللجوجية
التي ظلت تراوده في استرجاع لذيذ يتحسسها الآن بعمق

وعبادة . . في الماضي لم يستطع أن يقول لها شيئاً ، فقد كانت المسافة بينهما تقف احياناً عند حدود المناقشات والنظرة الباردة اللامبالية . . ولكنه الآن يستطيع أن يرسم لها مقدار الخطوة التي تخطوها على الرصيف حتى ، وهي الآن وفي هذا الحضور المكثف بمشاعرهما الجمّة المثارة تسمع منه كل ما يقول دون أن تمد يدها لتوقفه عن قول ما يريد كما كانت تفعل معه في الماضي.. الظهيرة هادئة فاترة ، ورائحة الربيع المغادر ترشرش بقايا العطر في جنبات الشارع ، وظلال النصب تبدو لعينيه عن كئيب خيمة توحى بالكرم الرافد . وهاهي معه تسمع منه ما يقول . في الماضي كانت تتحرز بتمردھا المستديم ضده ، وكانت صعبة المراس ، ولكنها الآن تلقي اليه بسمعها متظامنة في هدوء الظهيرة التي خلت من الآخرين . . نقلت خطواتها في ايقاع واحد مع خطواته وابتسمت له ابتسامة صامتة ، وعادت إلى نفسها بينما كانا يقتربان معاً من نصب الجندي المجهول . . دارا حول الساحة وانغمرا في ظل النصب ، واحسا فجأة ببرد مقرر وخاطف ولذيذ .

- « هل يعيش وحده الآن ؟ »

- « من . . أتعنيه مرة أخرى ؟ لا يهمني أمره »

- « أما تعلمين عنه شيئاً بعد طلاقك منه ؟ »

- « كلا »

- « هل كان طيباً معك ؟ »

- « قلت لك انه كان طيباً في البداية ، ولكنه تحول

إنساناً فظاً لا يحتمل »

وفكر . . لو كان قد تزوجها هل كان بمقدوره عندئذ ان

يصبح نفس الرجل الذي طلقها . . كان يومها يحبها ويعشق

الغموض الذي تحيط به نفسها في محاولة للدفاع ضد كل محاولة

منه لاختراق عالمها يومذاك ، ولكنها الآن معه وبين يديه طبيعة

ككتلة من العجين ، مصحرة كالفضاء المكشوف .

- « أكنت تتقبلين أحضانه عندما يحتضنك ؟ »

حركت كتفها اليمنى . دست يدها في جيب التنورة ومطت

شفتيها غير مبالية .

- « كرهته في النهاية . . ولم أعد أشтаقه »

عاودته الصورة الناغزة التي ظلت تلح في ذهنه باستمرار

ومطاوله وعناد . . أنكون فعلاً لا تحب الرجال ، لماذا إذن

ترضى بمصاحبتة الآن في مطاوعة واستكانة . .

- « هل تذكرين ما كنتِ تقولينه عن الرجال »

- « ربما نسيت ما قلته بالتفصيل . »

- « كنتِ تقولين بأحقية المرأة في الزواج بأكثر من رجل

واحد ما دام الرجل يفعل ذلك بحرية »

- « هاه . . . » ورقرت ضحكتها .

وتذكر مرة أخرى صورة صديقتها في الكلية . تلك التي كانت تضع النظارات السوداء على عينيها مخفية شبقها نحو « كوثر » وتوددها المخيف لها امام طلاب الكلية وعلى مرأى منهم جميعاً . نغزته الصورة القديمة مرقت السيارات على أرض الشارع المؤدي إلى الباب الشرقي ، إذ كانا يتجهان اليه في خطواتهما الممتدة . . رمى عقب السيكارا باصبعه ولاحظ العقب يتدحرج بخفة ويستقر في أسفل الرصيف .

- « نكاد أن نصل إلى النهاية . نهاية مشاورنا يا كوثر »

- « ماذا أقول لك . بعد أن تحدثنا كل هذا المشوار »

- « مرة أخرى . أقول لك دعي كل شيء ، دعي الماضي

ولنبداً من جديد »

- « أتقبل ببقايا امرأة ؟ »

- « اقبل . . ولكن دعي كل شيء وابدأي معي »

- « ببقايا امرأة تلملم نفسها لتبدأ شوطاً آخر . . اليس

كذلك »

- « مرة أخرى . . اقبل وأعدك بشوط كله رضى وسعادة »

- « اسمع . . يترتب علي أن أعود الى البصرة لأسجل

انفكاكي من المدرسة القديمة واعد بعد ذلك
تسطحت الصورة المأفونة في ذهنه مرة ثانية واحتلت
مساحة بانورامية مضخمة وعاد يفكر خلصة فيما سمعه عن «كوثر»
وفيا تردده عنها أقاويل يتحدث بها اصدقاؤه القدامى . . امتشق
اللحظات من حضوره معها وبسط لتفكيره طريقاً لاجباً الى
الحقيقة الموجهة ، أتكون لديها صديقة ثانية في البصرة هذه المرة
كما كانت لديها صديقتها في الكلية قبل سنوات . . وهي بهذا
القدر من الشطط في معاملة الرجال . كانت صديقتها في الكلية
تنضح سماً امامه ، تثيره وتستفز في اعماقه القبي والغثيان
ويحسب انها تستغل طيبة كوثر وبرائها الأولى ولم يكن يستطيع
تصور الامر كله . . حتى تزوجت كوثر بعد ذلك وانسحبت من عالمه
ككيان ولكنها ظلت صورة عزيزة في قلبه جامد اللحظة ان يزيح
الصورة الراهنة عن ذهنه المكدود حدّ ق في وجهها متأملاً وحاول
ان يصل الى منابع البراءة الأولى ولكن حالة من الضيق تملكته
إذ بدا له وجهها طبيعياً مكتسباً بقساوة انثوية تحتجز طريق
الود الذي انسرب منه قبل ساعات ليلتقي معها بعد سنوات
الجدب هذا اللقاء العجيب . . .

- « أتعودين الى البصرة لأنجاز عملية الانفكاك من هناك

فقط . . ؟ »

- « ما ذا يضريك . . سأودع ايضاً صديقة عزيزة علي هناك
كنا معاً في القسم الداخلي . ثم اعود »
حدق فيها بتمعن . . فاض به احساس بالعذاب . توجه
اليها بكل ما فيه من شوق الماضي إذ يندفق الآن . ولكنه ارتد إلى
نفسه واكتفى بصمته هذه المرة ظلت هي هادئة معه بينما ارتفعت
لجاجة الابواق التي ترسلها السيارات المزدهمة في ساحة التحرير .

« () () () »

احتضنك يا أمي . . ألملم جسدي الصغير المرتعش الخائف
في حضنك واعتكف فيه مثل جرو صغير يتلمس مواضع الأمن ..
تطالعني وأنا صغير ندبة الأيام القاهرة على وجهك الشاب الذي
بدأ يفقد رواه ونضارته . . وجهك ينضح دوماً بعلائم التفكير
وأنت تتخللين بأصابعك شعري المجدد المنكوش كصي مهمل . .
مات زوجك الذي هو أبي وما فهمت يومئذ انك كنت شابة
حينما مات وخلفني لك وحيداً وحيداً . . ما عرفت غيرك وأنا
صغير غريب . اعتبرتك بتصوير الطفل انك ملكي الخاص وعبدتك في
عقلي الصغير كما يتعبد الرجال شيئاً مقدساً غالباً ما سمحت لأحد
ان يتازعني فيك ، وما فهمت يومئذ كيف يتوقد السعير في قلبك
بعد أن مات زوجك السيء الحظ بسبب ادمانه على العرق . .
كنت لي عالمي وحدودي وملكتي وتفكيري وآفاق دنياي وأنا

صغير . عزلتك عن الوجود كما تعزل العنكبوت فريستها في شبكة
الخيوط الرقيقة . . وعازدت فيك الايام والزمن واحتجزتلك
لنفسي جاعلا حضنك مهجومي ومأواي وانه تتخللين بأصابعك
شعري في ساعات التفكير التي تستغرقك . وعند ما نشأت وكبرت
سمعت حكاية العشق للأمهات وحزنت كثيراً لأجلك . . لن
انسى الأيام تلك ، وسنوات الاحتضان الدافئ ووجهك تنداح
عليه دوائر الهم كبيرة كبيرة تمردت علي بعدئذ يا أم . . ولم
اعرف دوافع التمرد ضدي عندما كنت صغيراً مثل جرودٍ احق
غير اني اذكر ملامحها تلك المرأة التي بدأت تتردد علي بيتنا
المعزول . . قلت لي انها صديقة للعائلة كانت تتردد في الماضي
قبل ان اولد ثم تقطعت بينها وبين العائلة روابط الاتصال
وماهي تعود . . ركبني الخوف الغريزي منها وحسبتها عدواً
ينازعني بملكتي الخاصة . . استرضتني المرأة المجهولة الغريبة
بالحلوى وبكلمات تسيل حناناً . . كانت جيوشي الصغيرة التي
امتشق لواءها تندحر امام المرأة الدخيلة وانت ساكنة صامتة
حزينة يا ام تنتظرين اشياء اخرى تؤججها فيك لحظات السعير
في قلبك . . توثق بينكما الود وما عدت احتل في عالمك سوى
مكان صغير . . حققت عليك من بعد . . وعند ما رأيتكما
ذات مرة وانها تتعانقان محترقتين في لهيب اللهاك في غرفة

مغلقة منزوية ، ركضت كالمجنون وانبطحت على ارضية الحوش
وبكيت بجرقة بجرقة يا أم . . وتمرغت فوق الارض الصلبة وانا
أرفس كما ترفس الذبيحة وقت الذبح يا أم . .

ودعها في موقف السيارات الزاهية الى الجنوب . . حل معها
حقيبتها الكبيرة وأجلسها على مقعد في السيارة ، وظل واقفاً في
المحلة يرقبها من خلال زجاج النافذة ، ابتسمت له دون أن
تحرك شفيتها ولمس معالم حزن حائر . . كان يهجم خوفاً من
انها ستغفل منه رغم انها وعدته بالعودة الى بغداد لتبشر في
وظيفتها الجديدة . دار حول السيارة وكلمها من النافذة المفتوحة
- « كوثر . . سأنتظرك . . عديني بذلك . . اتركي ما علق في
حياتك في الماضي . . أتعديني ؟ »

ظلت تحديق فيه وهزت رأسها بعذوبة ، وبنان في حدقتي
العين ذلك الأحرار الممتزج بدمع لا يبين . . أحقاً تشدها روابط
لعينة بصديقة أخرى في البصرة . ظل يعامل أفكاره بتأجج
يلهبه إحساس كالمرض . .

- « أتعديني يا كوثر . ؟ »

- « أعدك . . »

تحركت السيارة واختفت عن نظره ، ولبت ثمة وحده ثم
تحرك بتثاقل . .

كانت حياتها قائمة على خليط من الفهم والتبني لأشياء لا تلبث ان تكرهها . هي تدرك ذلك حق الإدراك . لعنت حياتها وأفكارها وكل ما فكرت به في الماضي وصبت غضبها الخفي على كل ما جرى لها منذ شبت مراهقة حتى اليوم . . فعلاً كانت تؤمن يوماً ما بحق المرأة في ان تفعل ما تشاء وان تتزوج باكثر من رجل كما ذكرها في مشوار أمس هذا الزميل القديم والنتيجة . ؟ إنها الآن لا تقدر ان تفرز الأشياء في مكانها الصحيح ، كما انها اليوم امرأة مطلقة ، معلقة على هامش من العلاقات المحرمة مع صديقتها هناك . . السيارة تنهب بها الارض وفيها مسافرون مضجرون ، تجولت في وجوههم باحثة عن سلوى ، حولت عينها الى المناظر التي تمر بها السيارة خاطفة كسهم لا يرد . . فكرت به ، إنه زميلها القديم . . صديقتها الأول ، رجل له اكثر من خصيصة ملفتة للنظر ، ولكنه يعاني من شيء خفي يجعله أمامها خاوياً من معنى تبحث عنه ولا تجده . . زوجها دفنته في ركن النسيان واحتقرت أيامها معه . . صديقتها في البصرة تحرقها في أتون التجارب الشبقة حين تندفع معها كطائشة ظمأنة . . ارتضت العلاقة بها واحتقرت زوجها الذي طلقها بعد اشتجار المشاكل التي لا تحل . . أحست بكآبة إذ عادت تفكر في الرجل الثاني الذي ودعها في محطة السيارات ، أستطيع حقاً

ان تعدده وان تبي بالوعد . . طفحت الدموع في عينيها بينما
ارتجت السيارة ارتجاجاً عنيفاً . . غرقت في لون السماء الصافي
الزرقة وعادت الكأبة تضيق عليها حدود التفكير . كانت
السيارة تمضي كعاصفة متطوحة صوب الجنوب والمسافرون
الآخرون يلبغون من حولها بمحديث تافه . . تاقت نفسها الى
رائحة المطهر الذي يعبق في جنبات مستشفى قدر ودعت فيه أباها
آخر مرة . . وبدأت تتصور كيف يمكن ان يكون النقاء . .
أه تصورت نفسها نقية مثل الأطفال وإنها تتخلص من أدران
وحشية الظل وتصفو كروح رضية آمنة . . ظلت تنسرب
كروح شفافة في تصور الأشياء البعيدة الحلوة التي كثيراً ما
راودتها دون أن تطلها أبداً . . وأحست إنها تغيب تغيب . .
أرادت أن تفهم رأساً ودون أي تعقيد لماذا طغت هكذا على
الدوام ، غير إنها وجدت يدها تنشر بقوة ودون أن تفقه
شيئاً أبصرت لأول مرة لطحخ من الدم حمراء قانية . . أرخت
رأسها ثم حاولت أن ترفع عينيها . أبصرت زرقة السماء
تحتجب رويداً وتغيب في ضباب داكن . . جاهدت ان تفهم
ما يجري ، غير إنها غابت في عالم صعدت إليه بخطو متعثر
مبقع بالدم . . إرتمت فوق حقيبتها الكبيرة حيث طوحت بها
الحركة المفاجئة القوية وانبطحت فوقها وسكنت مثل إسطوانة
توقفت عن الدوران إلى الأبد .

ممر الى رمال البلور

أقعى أخيراً على حافة الرصيف الاسمنتية وتظلل بالفيء
الذي تلقيه مظلة مصلحة الركاب ، حيث كان الظل اللافت يمتد
بضعة أقدام من مكانه حيث رمى بنفسه مثقلاً بالتعب وبآلام
ظهره التي عادت تقصف فيه وتوجهه . . شم الهواء الساخن
الذي يدور حوله ويتصاعد كاللهيب في المكان كله ، فوق الارصفة
والشوارع التي لفها كالمخبول منذ يومين . . شم الهواء واستروحه
بعمق وأطلق نفساً من صدره ، خيل إليه انه أزاح به جبلاً
من الغم . . آه يا مدينة التيه ماذا أفعل بعد الآن . . كان
الوقت في الظهيرة وقد ظل لهيب الشمس يشوي الارصفة وقار
الشوارع بسياط تموز الكاوية وهو يبحث عنه ويبحث عنه دون
ان ينال مبعثه . . حرك رأسه مثل بندول الساعة كأنه ينوح
هذه المرة نواحاً يتجذر تدريجياً كالسرطان في نخاع عظامه ،

سحب قدمه اليسرى وتأوه واطلق مرة اخرى تنهيدة حرى ثم اسبل عينيه وعبر بها المسافة التي تمتد بين موضعه حيث اقمى وبين الشوارع المتفرعة عن ساحة باب المعظم وتخيل المدينة برقتها زردده في لؤم وشراة وجوع . . لم يبق لديه بعد الساعة من مبتغى بعد ان لف الاماكن كلها يبحث عنه ، وحينما فكر بسيكارة يشعلها اللحظة ويقتات على دخانها قرر بشكل حاسم ان يعود الى « النجف » ويدع الامر كله دون ان يبالي بما جرى له في المدينة . . جر نفساً من السيكارة واطلقه في تلذذ . . تخدرت بعض اوصاله وشعر بدوخة خفيفة . . حازته قدما مفتش المصلحة في منطقة الوقوف ، رفع إليه عينيه وغطاهما بيده ليتني عموداً من الشمس كان يتسرب نافذاً كالسهم من ثقب مدور في مظلة المصلحة . . ظل المفتش يتسكع حوله ويدور . . سأله من فوق رأسه - « هل تشعر بشيء . ؟ »

ابتسم في وجهه وشعر نحوه بألفة - « لا . . لست مريضاً . . »
سأله مرة اخرى مرتاباً - « ولكنك تجلس على الرصيف كما لو انك مصاب بالصفرة . . حاذر ، فقد تأتي سيارة المصلحة وتسحق قدميك عند حافة الرصيف »

- « لا . . لست مريضاً . . لكنها انا ابحت عنه منذ يومين

دون جدوى »

- « عن تبحر . ؟ »
- « عن مجد الدويهي . هل تعرفه ؟ »
- « لا . . لست اعرفه . . اين يعمل هذا الدويهي ؟ »
- « لا ادري اين يعمل . لو كنت اعلم لاهتديت اليه »
- « هل انت غريب عن هذا المكان ؟ »
- « انا من النجف . . وجئت منذ يومين لالتقي به . . .
هو دعاني الى ذلك لالتقي به ولكنني لا اعرف اين هو »
- « ألا تعرف اناساً يعرفون مكانه ؟ »
- « لست اعرف احداً هنا . . انا لا اعرف واحداً من
الناس هنا يمكن ان يعرفه بالتالي »
- « انا شخصياً لم اسمع به »
- « كلهم قالوا لي ذلك يا عم . وانا لا اعرف واحداً
يستطيع ان يدلني عليه . . هيه . . أستطيع من هنا ان اعود
الى موقف السيارات الذاهبة الى النجف ؟ »
- « ليس من هذا المكان . . اذهب الى الرصيف المقابل
وخذ المصلحة رقم ٢٠ واهبط في منطقة علاوي الحلة »
- رمى بقية السيكرة الخالية ولملم صايته وسوى عقاله فوق
الكوفية الرمادية التي تغطي رأسه وعبر الشارع واتجه نحو
المصلحة رقم ٢٠ . . متون عاماً يحملها على كتفيه المنهكتين

كاشمىن الباهظ وظهره يتقصف من آلامه المبرحة ، وقدماه يسري
فيهما الانين المكتوم . . هو الذي رمى بنفسه في بحر المدينة التيمه
دون ان يتيقن من المسأله برمتها . . فبعد ان استلم الرسالة
من « مجد الدويهي » قبل ايام قرأها له ولده « قاسم » وعرف
مضمونها جيداً . كانت الرسالة تقول له ان يأتى الى بغداد
ليستلم بقية المبلغ وان مجد الدويهي لن يؤجل الدفع بعد الآن ،
وإذا كان قد تأخر في دفع بقية المبلغ القائم على ذمته فلأن
ظروفاً طارئة واجهت مجد الدويهي جعلته يؤخر دفع الباقي ،
كما ان مجد الدويهي سينتظره في بغداد ليسلمه مبلغ الخمسين
ديناراً الباقية ولن ينقص منه فلساً واحداً بعد ان طالت مدة
التأخير . . وفي النهاية عزم على السفر وتوكل على الله واستمطر
بركات الامام واخذ السيارة نحو المدينة التي آثر ألا يراها الا
مرتين او ثلاث مرات طيلة حياته التعبي . . كل حياته امضاها
في مدينة الامام لا يبرحها ابداً . . هي مستقره وموطن امنه
ومأواه . كان منذ البداية يكره السفر وكان في الماضي قد اقسم
ألا يبرح مدينة الامام ، ففي المرات القليلة التي ذهب فيها الى
بغداد لم ير غير الوجوه التي سرعان ما تأتيه الى النجف محمولة
في موكب التوديع الحزين ومغلقة بالقماش البيضاء لتطويها رمال
الوادي الصافية الذهبية كالعسجد ، هناك يزاول عمله بهمة وصمت

وسط قبور « الوادي » الممتد كالبحر عند اقدام الحضرة المقدسة
حيث تشمخ مئذنتا الامام وقبته الذهبية امام عينيه حينما يبدأ
بالعمل ويبني شواهد الموتى المدفونين في بطن الوادي ذي الرمال
الصفية كالبلور . . منذ البدء زاول المهنة وراثته عن ابيه ،
يبني للموتى شواهد قبورهم ، يودعهم بعدئذ للصمت الابدي الذي
يرين ابدأ ابدأ فوق فضاء الوادي وخلل ذراته التي تحوم فوق
الشواهد مثل طيور خفية متناهية في الصغر تدف باجنحتها
حانية على آلاف من الشواهد الجائمة في وقار الموت محتضنة
اجسادهم ، هؤلاء الناس الذين يكابرونه ويحتلفون امام عينيه
الآن ويتشابهون في صمتهم المتطامن غداً . . هو الذي يعرف
الحقيقة جيداً . . يعرفها كما يعرف اليقين الذي لا يتزحزح في
راسه ، هناك ، حينما يبدأ بالعمل في صمت متحد مع صمت
الوادي ، يضع حجارة فوق حجارة حتى يعلو الشاهد ويعلم .
عن اسم الميت وهويته وحتى تتشابه الشواهد من بعد في عينيه
فلا يغدو الناس كما يراهم في حيواتهم الآن وكما يكابرون امامه
عندما يطرح عليهم سؤاله المصني عن مجد الدويهي . .

وعندما توفي ابن مجد الدويهي جاءوا به الى النجف وكان
موكب الجنائز طويلاً ومهيباً . . سمع الكثير عن مجد الدويهي
وعن غناه وامواله . لم يره من قبل ولم يره حتى في جنازة ابنه . .

قالوا عنه إنه رجل هيبة ومنظر ، وانه لا يظهر بين الناس الا
حينما يحسن اليهم بأمواله ، وان الكثير منهم في حقيقة الامر لم
يره رأي العين ، انا كانوا يسمعون عنه فقط ، حتى عدّ صورة
نادرة لا يمكن ان تنالها عين انسان الا بالجهد والمشقة . . وقد
كلفه من كلفه نيابة عن مجد الدويهي ببناء قبر ضخم يليق بابن
مجد الدويهي في وادي النجف بحيث ترتفع فوق مهجع الابن
قبة مغطاة بالقاشاني الازرق تتراعى للأعين من مسافات بعيدة ،
وليستدل الناس الذين يسمعون عن الدويهي ولا يرونه على قبر
ولده وهم يتوجهون اليه من مسافات بعيدة . . وهكذا بدأ
العمل في بناء القبر ذي القبة الزرقاء . استلم الجزء الاكبر من
تكاليف البناء وبقي مبلغ الخمسين ديناراً . طالت مدة التأجيل
حتى وردته رسالة مجد الدويهي التي قرأها له ولده قاسم .

الاسطة ابو قاسم المحترم

نرجو منك ان تأتي الينا في بغداد لتستلم بقية المبلغ
المرتب علينا ، فقد طال التأجيل على ذمة ظروف صعبة اصابتنا
ولكننا لن نؤجله بعد اليوم وما عليك الا ان تأتي لتأخذ حقلك
طيباً حلالاً والسلام .

التوقيع

مجد الدويهي

حتى كلمات الرسالة كانت حلوة وقد سافر الى بغداد
بالفعل . . يومان وهو يبحث عن الرجل . كل الناس لا يعرفون
من يكون مجد الدويهي وكلهم يعرض حينما يطرح السؤال ملحفاً -
فيما اشبه بالضجر والسأم والجفاء كأنهم في المدينة التي يعانون
مرضاً في اعينهم ووجوههم . وكلهم سألمهم نفس السؤال - « يا عم ..
ألا تعرف رجلاً طيباً بحسناً اسمه مجد الدويهي ؟ »

كلهم اجابوه - « لا . . لست اعرف احداً بهذا الاسم »
- « ولكنه هنا وقد ارسل الي رسالة بأن آتي اليه »
- « ولكن المدينة واسعة ايها الرجل . . كيف اعلم بمكانه »
يصيبه الحزن كلما لفته اجوبتهم الجافية الحادة وكما لفته
الحر وهو يلف ماشياً كل مشارف الطرقات وشوارع المدينة
القائمة هنا كحيوان خرافي . . اين يكون اذن مجد الدويهي إن
لم يكن في بغداد . . هو لم يره ابدأ ولكنه سمع باسمه وبني لولده
قبة زرقاء وبقي المبلغ على ذمته ودعاه بعد ذلك لاستلامه ،
ولكن المدينة واسعة في عينيه . تسربلها نفس الرائحة التي اعتاد
عليها وألفها وهو يبني الشواهد الحجرية في وادي النجف . .
رائحة النهاية واللاشيء ، غير ان الناس هنا لا يتشممون الرائحة
أبدأ ابدأ . . قال لنفسه انهم يختلفون هنا ويتشابهون هناك حينما
يبني لهم الشواهد ، وأياً منهم لن يعرف مجد الدويهي ولن

يعرفه هو ايضاً ، ولن يستطيع ان يصل اليه . ومن هو الذي
يقدر على الوصول الى الدويبي رغم انه قريب منه وحروف
رسالته ما تزال تتسافز امام عينيه وهو يتابعها مع ولده
قاسم . . . اكيد . . انه يعيش بينهم وله نفس رائحتهم ،
ولكن الناس لا يرونه بل يعيشون في ظل اسمه حينما يظهر احياناً
ليوزع حسنات بما يملك ثم يختفي كما اختفى عنه وكما غاب كأن
لم يخلق رجل بهذا الاسم .

احتواه مقعد السيارة الذاهبة الى النجف في منطقة علاوي
الخلية . ظلت الرائحة التي تتصاعد من انحاء المدينة كالبحور
تتجمع في منخريره . . ظل يحرق في الناس من خلال زجاج
السيارة الواقعة ، رآهم يتوجهون متنافرين كقطبي المغناطيس .
رآهم من بعد يتصادمون بعنف وعنت . تصاعد المنظر في
حدقتيه حتى لفه عالم يشبه الثبور . . حلم بصمت الوادي الممتد
امام الحضرة المقدسة واحس بفرحة غالبية وحرقة لذيدة كالحنين
الى شيء محبوب وابتسم في اعماقه بحزن ، حتى سمع صوت السيارة
وهي تفرق ايداناً بالسفر وتدوي معلنة لحظة التحرك . . انصفق
باب السيارة بقوة - « طاق . . . » تكوم على نفسه منسحباً
الى افكاره المتواثبة . أحس بان ممراً مرصوفاً من حجارة الذهب
ورمال البلور يجذبه فيما يشبه العناق والاحتضان . . أسبل جفنيه
وابتسم مع نفسه مرة اخرى .

القرود والبيغاء

صوت خليل فاهم

تنفذ أشعة الشمس من خلل ستائرِكَ البالية التي مضى
عليها زمان طويل منذ وضعت في مكانها . وها أنت تحرك
جسدك الضئيل من تحت الغطاء وتشم رائحة نومك في الليل
الشتائي الثقيل ، وتتحرك فعلاً وتحس أنك بالحركة تدب في
جسمك وتعجب مرة أخرى ككل الصباحات المنصرمة كيف
يمكن لمثلك ان يتحرك فعلاً وان يحس ويفكر ، بعد أن بدأ
هذا الشعور المهول يستولي عليك كفاتح قاهر يقتحم عليك
الاسوار التي أقتها حول قلعتك الحصينة منذ سنوات . . الشعور
بأنك أصبحت قرداً كالقرود ، لا تختلف عنها في شيء . .
تتحسس في جسدك الخائر الصغير لسعات الشعر الخشن الذي

يغطي اجسام القروود ، وتمتد يداك واطرافك القصيرة في حذر
وتتخيل نفسك متسلقاً جذوع الشجر او زاحفاً على الارض
تهمهم مع نفسك كالقروود . . هكذا انت يا خليل فاهم . .
طعنت حتى الاعماق وتحولت قرداً لا غير . .

أطل عليك وجه الخادم الجهم مرة اخرى كأي صباح .
وتوقعت منه يقوم بنفس الحركات التي يؤديها امامك كل يوم
وسمعت بالضبط عبارته الجافة التي تنزل في دماغك مثل نصل
بارد - « استاذ . . هيا انهض . . » والعجيب انك غدت
تطيعه وتخاف منه وترهبه . . يطالعك وجهه في صورته المتفضضة
اليابسة ، ويواجه اليك نظراته الجامدة فتتكش في فراشك مثل
قرد يواجه لطمه من مسدربه ، وترفع عينيك اليه وفيهما من
الذلة شيء كثير ، وتحرك عندئذ يداك واطرافك كما لو أنك
قرد حقيقي وترحف ببطء سالخاً جسمك الضئيل من الفراش
الذي يشهد دفؤه على نيز شهواتك المحرومة واعماقك المظلمة التي
لا تعرف لها قرار . . وتفعل نفس الاشياء التي لعبتها في الماضي
وانتهيت من رواثها إلى ما يشبه الموت . . ليس في الاشياء التي
تفعلها إلا ما يوحي بالموت نفسه ، ويقذف لسانك نفس الكلمات
التي يوجهها الى الخادم العجوز - « هل الفطور جاهز . ؟ » ولا
تسمع منه شيئاً بل تخطف عينك هزة رأسه اللعين ، ثم تمضي

كالمنساق إلى ساحة الاعدام - إلى القفص الذي حبست فيه
بيغاءك النادرة الذكية . . أنت تذكر دوماً متى وكيف أهديت اليك
البيغاء في عصر قوتك الذهبي عندما كنت السيد الأمر المطاع ..
المدير العام السابق الذي لا يرد له أمر . . كانت الهدايا
كثيرة ، عج بها بيتك وناءت بها زوايا دارك يا خليل فاهم . .
وكانت البيغاء التي عاشت معك الى هذا اليوم هدية من الخارج . .
من الاسياد . . تتكلم وتنطق وتسخر وتسب وتشتم وتفعل
السحر وكأنها طيرٌ جيلٌ من سحر آثم .

في كل يوم تفعل نفس الشيء الذي فعلته بالامس . .
تقف ازاء القفص وتتكشف اسنانك عن ابتسامة تنز صديداً
يملوك حتى الاختناق ، ويولد في عينيك الصغيرتين الكيليتين مثل
عيني البيغاء الذكية - يولد حقد له رائحة حارقة تشمها في جسدك
وتنضح منه حتى يرتعش مثل ذبالة حقيرة . ويندوس جسدك
عندئذ كسكير دائخ ، وتظل هكذا دقائق تتطلع في عيني البيغاء
حتى تحس انك تندمج معها في منظور واحد ، وتشعر انك
تدخل في عينيها الجامدتين وتبحلق بهما في الاشياء وتستهبوك
العرشة المتشفية وتكزّ على أسنانك ، حتى تأتي اللحظة المباركة
من الزمن الملعون حينما تفهمك البيغاء مثل شيطان يركبة السحر.
تهمم لها من بين اسنانك المرتعشة - « هيه . . قولها . »

وتأتي اللحظة المباركة وينزل صوت الببغاء في حناياك مثل
مثل ماء بارد مثلج ويمتلىء البيت بالصوت الفوضوي الآثم
- « سحاقية . . سافلة . . »

وتبتسم ابتسامتك الميتة ويفح صوتك ملحاً - « هيه . . »
- « سحاقية . . سافلة . . »

وتنتفض من الفرح الذي يلفك كالطفل - « هيه . . »
قولها . . .
- « سحاقية . . سافلة . . »

وتنمو قهقهته من مستنقعك المليء بالروائح الكريهة
- « ها ها ها . . قولها . . قولها . . »
- « سحاقية . . سافلة . . »

وتعلو القهقهة حتى تبدو يا خليل فاهم معتوهاً يبحث عن
اللاشيء ويطلق صرخات قهقهته في القاعات الخاوية التي يرن
فيها الصدى القاحل - « قولها . . فاني أسكر . . »
- « سحاقية . . سافلة . . »

وتنفجر كما ينفجر عواء كلب في قرية تشكو والجوع ،
وتستريح عيناك الجاحظتان وتستسلمان فيما يشبه الخذر وتظلان
معلقتين بعيني الببغاء وكأنكما تعيشان معاً في قفص واحد وقد
تلبستا بنفس الاهاب وعشما زمن الموت المكفن بالزوجة . .

هل استرحت يا خليل فاهم . . الدموع تملؤ عينيك . . تبكي
وتبكي وتبكي كأمراة ضاجعها الفاتحون . .

أصوات الآخرين

ان لغتنا غير لغته . . واغانينا ليست أغانيه . . وافكارنا
لا تتصل بأفكاره ، فهو بعيد عنا مثل قربه الشديد منا كما اننا
نتحرك بكل حيواتنا امامه وحوله ولكنه لن يبصرنا في يوم من
الايام ، غير اننا نبصره وننفذ بمحادثاتنا الى نخاع عظمه ، ومع
ذلك يظل هو ذلك القميء المكابر المتعالي وكان الدنيا خلقت
لكها من أجله . . كان في الماضي متعجرفاً . . هذا صحيح . .
وحاول أن يبقي صورته في اذهاننا على أنه مخلوق عظيم رغم
قائته ولكنه واجه النهاية بكل بشاعتها واستسلم كما تستسلم
القرود . ثم بدأ يحيط نفسه بالغموض العجيب ويحنط بيته
برائحة السحر الاسود . . إن اصواتاً غريبة ورهيبية نسمعها
دائماً تصلصل في آذاننا من جراه . . هذا الوحش الضئيل . .
كما أن لبيته رائحة الموت الصفراء . . ودائماً يسحب انظارنا
الى أركان البيت وما يجري فيه من أسرار وسط الوحدة
والصمت إذ يعيش كسكم مهمل هو وبيغاؤه وخادمه ، وابدأ ابدأ

تنبعث رائحة الموت من الداخل ناشرة انفاسه وتهويماته . .
ورغم ذلك يبقى في تصورنا صرصاراً بليداً تبوأ في يوم من
الايام مناصب لا يستحقها ثم سحقته يد " لا تظالها في القوة يد"
اخرى . . هل تريدون ان نقول لكم شيئاً آخر عنه . . اسمعوا
اذن . . لقد احتقرته زوجته في النهاية ، وعندما هوى كنجم
ضال وذهب مثل حجر اصم الى الحضيض اكتشف فجأة ان
زوجته كانت محظية للسلطان وانها كانت بنفس الوقت تكرمه
وتحتقره حتى الموت ، وانها كانت ترفض ان تضاجعه متعاملة
معه كقواد . وعندما كان في قمة امتلائه نفوذاً وكبرياء وسطوة ،
كانت زوجته محظية للسلطان شبيهة ودسمة وحلوة . . وعندما
اصبح كومة نفايات وسقط عهده ، راحت تمارس السحاق مع
النساء الاخريات . . واخيراً نقول لكم . . انه وجدها يوماً
متلبسة بالمشهد نفسه وقد ذاب جسد اثوي في جسد اثوي آخر
وعندما أراد ان تقدم اليه الحساب بصقت في وجهه وذهبت
بعيداً مخلقة اياه في وحدته المطلسمة بشارات السحر والبقاء
والخادم الغريب كخرابة سيده

صوت الخادم

أنا خادمه حقاً . . اسمي « حسين المذال » . . حاولت

في الماضي ان احبه فكان متعجرفاً رغم قراءته فكيف احبه
اليوم بعد ان بدأ يتحول تدريجياً الى خرقة بالية يفوح منها
العفن . . حاولت في اوقات يأسى ان اتركه الى اللاعودة ،
ولكنني كنت افكر بالجوع الذي سأغرق فيه حتى اموت مثل
جيفة ننته بعد ان بلغت من العمر حـدأ ينهكني ويفرني حتى
العظم . وقد انجهدت صباح هذا اليوم الى غرفته لأوقظه . .
أصبح ينكمش لمأري مثل كرة مثقوبة فارغة من الهواء لمجرد
النظرة الخالية من اي مشروع ، وكنت اعجب لماذا يستسلم لي
بمثل الطواعية التي تغلف حركاته المستوفزة . . وقد تكون
فكرة القتل قد ساورتني فترة من الزمن ، ولكن القتل نفسه
ظل فكره مجردة عن يقين التنفيذ ، وربما فكرت مراراً انه
سيكتب لي في وصيته اخيراً بجزء من قيمة البيت الذي يقطنه ،
فلم اكن اعرف ان له اقارب يستورثونه في حالة موته ، ولم
يكن له ولد من زوجته التي طلقته وذهبت الى مكان مجهول . .
لقد جعلني شاهده . . شاهد" على عصوره المنسحقة تحت اقدام
الزمن الجبار وجعلني جزء من حياته المملآ بالاسرار والاثم . .
وها اتنا نعيش الآن معاً في مرتبة واحدة . . السيد والخادم . .
ولكنني فقدت معه كل صلتي بالاشياء وغدوت عدماً مثله . .
اللعنة عليه . . اللعنة عليه . . اللعنة عليه . .

عندما اتجهت الى غرفته كان الهدوء يفرش كفه في ثقل
خائق حتى ان روحي تقصفت مثل جناح مكسور يسبح بالدم . .
كان الهدوء رهيباً واحسست ان لوناً اصفر كالقبيء يطفح حتى
يملاً ارجاء الغرفة ، وعندما حرته قلت له - « استاذ . . هيا
انهض . . » ولكنه لم يتحرك ، تأملته طويلاً ثم هزرت جسده
الصغير فكان يطاوعني في استسلام فظ . . حرته مراراً وبقيت
اهزه حتى كلت يدي وعندئذ شهقت . .

كان صوتي يفتح في الصالة وقد واجهتني عينا البيغاء - « إنه

ميت . . إنه ميت . . »

وعندما رفعت سماعة التلفون لأخبر واحداً من الناس ،
تذكرت انه لا يملك أحداً منهم . . وفي المساء جاء رهط من
القوم لا اعرفهم ولكنهم ادعوا بأنهم اقاربه وفتشوا كل ناحية في
الدار فلم يعثروا على بغيثهم التي جاءوا من اجلها ، وبعد ساعة
حملوه مثل خرقة أكلها القبار وذهبوا به الى مكان بعيد .

رحلة عبر عذاب الحلم

انطلقت بها سيارة الاطفال ذات اللون الازرق ، وسمعته
برد على تحيتها بصوته العميق الرزين - « صباح الخير ست
ساهرة . . »

اتخذت مقعدها المعبود قريباً منه ، ونفخت في يديها
وفركتها وشعرت بدفء لذيذ ، ونقلت عينها في زوايا السيارة ،
كانت المقاعد شاغرة وبلا ضجة وبدون حركة . تخيلت وجوه
الاطفال العذبة واحست بفرحة خفية اذ ستلتقي بهم مرة اخرى
هذا الصباح . . عادت تفرك يديها وتنفخ فيهما ، وخيل اليها
انها مثلجتان جامدتان من برد الصباح . . رفعت عينها الى
« احمد » سائق السيارة ، كانا وحدهما في هذه اللحظة الفريدة
من الزمن ، بدون ضجيج الاطفال وصخبهم . . وانهما ليبدآن
جولة الصباح وحدهما هكذا ، ثم يتقاطر الاطفال مثل قطرة قطرة

حتى يملأون السيارة ويعلو الصخب .

تذكرت « ساهرة » الدقائق التي تقضت وهي تنتظر وصول السيارة لتنقلها وتنقل الاطفال الى الروضة ، كانت قد نهضت من النوم مبكرة كعادتها وفتحت النافذة الوحيدة في غرفتها الصغيرة البسيطة المظهر ، ووجدت الصباح بارداً بارداً وتصورت انها لن تستطيع ان تقاوم البرد بدون ارتداء المعطف الرخيص الذي ابتاعته في نهاية تشرين الثاني ، وقد شعرت بلذعة البرد القارصة عندما كانت تنتظر في مكانها امام البناية ، ولكنها كانت تشعر بسعادة طاغية وهي تنتظر السيارة كأنها تنتظر موعداً شهيماً . ، ذلك انها رغم البرد في ذلك الوقت المبكر من الصباح ظلت تحلم بالدفء في داخل السيارة عندما تأخذ مجلسها في مقعدها المعهود قريباً من « احمد » ، وقد كان ذلك كله يبعث في روحها موجة عارمة من الفرح الأسر شاعرة أن مناظر الصباح الشبية تملأ عينيها الخضراوين وكأنها تولد في اعماقها مثل وليد رائس النقاء ، وكانت تتنشق عبير الارض النديّة ورائحة الاشجار التي تتسرب اليها من نافذة السيارة وتحلم في ابواب السحر التي تنفتح عن قصر عجيب ينتظرها فيه على السلم الناعم انسان لم تلتق به ولم تعرفه من قبل ولكنها تعرف ملامحه حق المعرفة ، اذ يفتح لها ذراعيه ويتلقفها من خصرها ويصعد

بها درجات السلم ويختصر معها الوجود والزمن في حركة إيقاعية
حاملة ، ولا تعود . تشعر بنفسها بين يديه بل تغيب مثل حمامة
وادعة ترف وتختلج في مطاوي الفضاء الواسع ، كانت تتخيله
دائماً عميق السمرة وفي عينيه لغم وكآبة وفوق شفقيه شارب
كثيف يحدد يعطيه صورة فريدة لرجل قوي ولطيف ومحبوب .
رفعت عينها مرة أخرى وراحت تتملى جانب الوجه
الساكن . . . وجهه . . . احمد . . . انها الآن وحدهما بدون
اطفال ، وبعد قليل ستحمل السيارة اول طفل ولا يعودان
وحدهما . . . هكذا هو الامر كل صباح . . . والاطفال . . . يالهم
من اطفال رائعين مشاكسين يفيضون براءة وحلاوة ، انهم الآن
ينتظرون وصول السيارة لتنقلهم الى الروضة ، ينتظرونها مثل
ازهار تترقب الفراشات الملونة ، وقد تجدهم ساهرة يقفقفون من
البرد ويرنجفون وتتلون وجوههم بلون الزرقة الممزوجة بالدم . .
« لو أستطيع ان ادثرهم جميعاً في الصباح البارد » لقد كانت
تشعر نحوهم شعوراً حاداً بالامومة اذ كانت تتخيل انها ولدتهم
جميعاً ، ويبقى الخاطر الجميل ينث في حناياها نعمة لسلاشياء
وحماساً للحياة دافقاً بسيل من المشاعر البهيجة .
رمرت « احمد » مرة أخرى واستغلت الفراغ ، وظلت
تحدق في جانب الوجه الهاديء الكريم كأنها تتبتل في السرحى

يفيض بها الفضول العجيب . . « احمد » هذه عادته . . لا
 يتكلم ، لا يتفوه بجرف الا اذا سألته او حدثته أو دفعته الى
 الكلام . . كانت تتفحص سكوته وصمته ووجوده المكثف امامها
 كحقيقة كبرى - في شيء من الاحترام والرهبة والفضول ،
 وكانت احياناً لا تتمالك فيض الافكار فتود لو تتهمش فوق جبهته
 الصلدة قطع الزجاج لتشرح الصمت الموحى وتخدش وجه الهدوء
 المشوب بالكآبة . . اهو يحترمها ام هي الكبرياء ؟ اهو يخشى ان
 يتبسط معها في الحديث لأنها « المعلمة » ام انها لاتلقت النظر ؟
 زميلاتنا في الروضة من المعلمات والمشرقات يطرين جمالها دوماً
 ويتحدثن عن جمالها وعينيها الخضراوين . . لماذا لماذا الصمت . .
 - « احمد . . لقد تأخرت قليلاً هذا الصباح . . لماذا؟ »
 لم يلتفت اليها السائق . بل ظل يراقب الطريق بعينيه
 ثم اجاب كمن يصحو - « ذلك صحيح . . معذرة للتأخير »
 ابصرت في جانب وجهه صفاء مثقلاً بالتفكير والسهاد ،
 كان يبدو لعينيها رجلاً قوياً وغامضاً .
 - « انني اعتذر . . انت تعلمين متاعب الاولاد . لقد كان
 طفلي الصغير » وخنث انه سيكمل .
 - « ولكن لماذا اريد ان اصدحك في هذا الصباح . .
 هل تذكرين طفلي الصغير ، لقد حدثتك عنه »

- « انا اذكر جيداً . . ولماذا انسى . . انني لا يمكن

ان انسى »

- « لقد كان مريضاً هذا الصباح الى حد نحيف وحرارته

عالية » .

- « يا للطفل المسكين » وتأملت بحق . . تذكرت يوم قص

عليها القصة بأكملها ، وكان ذلك في احد الصباحات الباردة ايضاً

وكانا وحدهما . اختصر لها الحكاية كلها ، الزوجة والفقير والسل

الذي ملأ بيته بالموت ، والموت الذي خلف له تركة ثقيلة من

البنات والاولاد . ساهرة تتذكر الحكاية جيداً حينما اخبرها

قبل ثلاثة اسابيع ، وكان احمد يبدو وقتئذ رافعاً ومتصبراً وهو

يتكلم ببطء من وراء المقود وعيناه جلمدتان على الطرقات والشوارع

الموشحة بالبرد ، - « انه رجل . » هكذا كانت تردد مع نفسها

كلما عاودتها الخواطر الخفية مقترنة بصورته كرجل متصبر .

- « احمد . . ابنتك « هدية » . كم عمرها ! »

- « انها في الثالثة عشرة من عمرها ، ولكنها لو تعلمين

لا تفهم شيئاً من امور البيت ، ولذلك فالبيت في فوضى » .

تمتتم ساهرة - « لا بد ان الطفل يرقد الآن هناك مع

« اخته ؟ »

التفت اليها لاول مرة هذا الصباح . . ارتعشت ساهرة

قليلاً ربما لنسمة باردة اخترقت نافذة السيارة ، غير انها ظلت تتوغل في احساسها الخفي بكآبة وجهه المشوبة بالصفاء .

- « نعم . . انه هناك ، وقد تركته مريضاً الى حد خفيف »

- « انني اقول .. اقول كان الله في عونك »

- « انني احبه .. احب هذا الطفل فهو يذكرني بامه دوماً »

- « ليرحمها الله . »

- « ويرحم امواتك .. انني اجد نفسي عاجزاً عن رعاية

البيت والاولاد »

وابتسم في دمائه ثم هز رأسه . . ارادت ساهرة ان تقول له شيئاً . تمننت ان تذهب الى بيته لتسهر على الطفل وترعاه كما ترعى اطفال الروضة . وان توفر لبناته شيئاً من السعادة كما توفرها احياناً لاطفال الروضة . . لو تستطيع لو تستطيع . . وابتدأ الاطفال يملأون حيز السيارة تباعاً ، واحد يدير المقود ويفرق في هدونه ، وتظل الطرقات والشوارع التي تمر بها السيارة الطويلة محملة بالبرد وبرائحة تنفذ في اعماق الروح مخلقة احساساً بالتفرد الحزين .. فكرت ساهره خلال ذلك ..

- « احمد . . لا ادري ماذا كنت اريد ان اقله لك .. »

- « نعم ست ساهرة .. »

- « كنت اريد ان اقول .. انني .. انني لو استطعت رعاية

الطفل لشعرت بالسعادة . . »

ارتسمت على وجهه معالم حزن طيب فرشتها رغبته الاكيدة في الامتنان ، ولكنه لم يجبهها بحرف ، بل راح ينعطف اخيراً بسيارته نحو الشارع المؤدي الى بناية الروضة . . هبطت ساهرة وبدأت ترقب الاطفال وهم يغادرون السيارة ويتراكضون في مرح صوب بناية الروضة ، كان ضجيجهم يملؤها احساساً بوجود عميق يلتصق في اعماقها ، وبسعادة مضاعفة اذ يحدثها السائق حديثه مختلطاً مع اصوات الصغار . . لو تستطيع لو تستطيع ان ترى صغيره وان تقف بجانب الرجل في محنته ، وتذكرت حياتها كلها منذ البدء وغرفتها القائمة الجدران ونمط المعيشة في الشقة الحفيرة المؤجرة في البناية الكبيرة وحياتها الوحيدة مع امها الصماء التي فقدت بصرها بسبب الشيخوخة .. الوحدة . . . الوحدة هي التي تقتلها في الامسيات الخالية من اي اشتها ، وغرفة الصمت في الشقة هي التي تقتل في نفسها حماسة الصباحات والساعات الجميلة ، ولولا صخب الاطفال في الروضة ولولا الآخرين الذين تأنس اليهم في ساعات النهار لما احتملت قسوة الأيام . .

أمضت ساهرة ذلك النهار وهي تفكر فيما قاله السائق وفيما نفض اليها من همومه وكانت تجد في ذلك تسليمة وسلوى .

كان وقت العودة دافئاً والشمس تمد اشعتها في فتور لذيذ .
دار « احمد » في نفس الشوارع التي مر بها في الصباح وغادر
الاطفال واحداً اثر واحد . وبقية ساهرة وحدها على المقعد
القريب منه . اتجه السائق بها نحو منطقة الباب الشرقي وشارف
مدخل شارع الكفاح .

- « احمد . . »

تلفظت باسمه واحست في صوتها رنيناً عميقاً مرتعشاً .
- « احمد . . اني اشعر بتعب وصداع . . اري ان ننزل
معاً بكل صداقة ونشرب كوبيين من الشاي في محل الكيت كات
القريب من هنا . ؟ »

ورمقته يبلع ريقه في صعوبة ، وتوقعت ان تسمع اعتذاره ،
ولكنه ادار المقود باتجاه « الكيت كات » ، وهبطاً معاً بعد ان
تلكأ عنها خطوات . مشت هي امامه في خطوات متعثرة وتخيلت
الناس ترمقها في فضول واستطلاع . دخلا « الكيت كات » ،
وانجھت الى الطابق العلوي دور . ان تلتفت وراها بينما اتخذ
« احمد » مكاناً له في الطابق الارضي ، وتناولوا الشاي الحار على
هذه الصورة .

وحينما هبطت على السلم وجدته ينتظرها عند المدخل كانه
رجلها الوحيد . ظلا صامتين بقية الطريق ، وحينما غادرت

مقعدها في السيارة امام البناية التي تقع فيها الشقة لم تعرف كيف تقول له « مع السلامة » ، كانت ناقمة على شيء ما ، وعندما تحركت السيارة الطويلة وخلفتها الى الورا ادركت تماماً انها لم تقل له - « وداعاً » . ظلت واقفة حتي اختفت السيارة ، ثم بدأت ترقى سلم البناية متجهة نحو شقتها. والتقت في الحجرة بوجه امها الجامد . . مساء كئيب رمادي آخر، يبدأ مثلما بدأت مساءات كئيبة مرت في عمرها وهي تمضغ الافكار الكابوسية المرعبة . . لم تحاول ان تقول لامها شيئاً فإذا تسمع منها الام وقد اعدتها الشيخوخة كشجرة هرمة يابسة . . خلعت المعطف ورمته في الدولاب وارتمت على الكرويته ، واخذ الشريط يدور في الخاطر . . انها تشعر نحوه بكل شيء وهي لا تقدر لا تقدر ، لن تنكر أو تغالط ، انه رجل رائع وهي تذكر أول مرة رأته فيها عندما عينوه سائقاً لسيارة الروضة ، كان الخريف ما يزال يبعثر اوراق الشجر ويذروها ، وكان احمد وقتها يشمر عن ساعديه ويبدو الشعر الكئيف على الساعدين الاسمرين ، كان نظيفاً منذ البداية ، نظافته ورجولته وكأبته وهدوءه تأسر لبها وتجعلها تفكر فيه كما لو انه يهبط عليها كالتقدر النازل . . انه رجل رجل رجل . . انه رجلها الذي حلمت فيه طويلاً طويلاً . احست بالدموع تجول في عينيهما . . لوستطيع مساعدته

لو تستطيع ان تمد له يدها بكل عطاها وان تعيش عالمه الصامت
النظيف المليء بالمشاكل اذن ستغيب عنها الامسيات الكئيبة
وتندثر الهموم . . وكما يتسلل ضوء الفجر الباهت حياءً بدأت
ساهرة تشعر بروعة عظيمة واغراء جميل يتسللان الى نفسها ،
وتنفجر البهجة المبالغتة - « يمه . . يمه . . أوف يمه . . »
بس لوتعرفين . . لوتعرفين شكك لطيف ومحبوب وابن حلال . . »
واحست ساهرة براحة تتمشى في حناياها ، وارادت ان
تقول اشياء خفية اخرى وتزيحها عن صدرها . ، اصبحت لها
اسرار حلوة ونجوى وتباريح ، ترددها مثلما تتردد الأدعية في
الليل ، وتعيدها كما تعيد تنويمتة لطفل . ظلت تعيش دقائق
تدري مقدارها وكثافتها وروعتها حتى انها كانت تدرك بحاسة
وفرح انها تستطيع الآن ان تفرق الزمن وتجمعه . .

- « يمه . . على كل حال . . لازم اقول . . أني احبه
وليش انكر . . احبه اكثر من روحي . واعزه اكثر من معزة
عيوني الخضر هذي . . »

ولم تستطع بعد ان تنال راحة اقصى بما نالته من بوحها
الخفيض الراجف كالدهاء ، وكانت امها تجلس قرب المدفأة
النظيفة تتلمس حاجة ما ولا تسمع غير طنين ابدي ، وساهرة
تعيش حلمها وحدها وحدها . .

الفارس والبرج

كان ظله يستطيل مع استطالة الشعاع الفاتر الذي تلقيه
شمس الغروب ، حينما وقفت امامه أتطلع اليه خائفاً من ترقب
الليل الذي يذكرني باشباح الغابة وشياطينها . قال لي ابي -
« لا تخف من الظلمة ، اختبي في الكوخ وسد عليك المنفذ
بلوح الخشب المرمى الى الخلف وضع حجارة كبيرة لصقة . .
لا تخف . . »

كنت احس الخوف يغوص في قلبي ويرعشني . تطلعت الى
ابي مرة أخرى وكسدت استغيث به وارجوه ان يبقى أو أن
يصطحبني معه حيث يريد ان يذهب لولا انه رماني بنظرته
الثاقبة القوية - « قلت لك لا تخف . . سأعود غداً بعد أن
أواجه الشيخ وأطالبه ببقية الحصاة . » وسمعتهم يتمتم مغضباً ،
وقبل ان اقول له انني جائع ، كان قد مضى شطر الدرب
الترابي المؤدي الى القرية .

بقيت وحدي . . اختبأت في كوخ ابي كما يختبئ الارنب
المذعور في حجر صغير داكن ، وكان المكان الممتد بالخضرة إلى
مسافة بعيدة حيث ترتفع ثمة اشجار الغابة المجاورة يتحول
الى لون مشرب بالدكنة الشفيفة . . هبط الليل وبدأ قلبي
يرتجف واهناً كذبالة الفانوس . . « سيأتي » قلت لنفسي
أحاورها بخفوت . . « لن ادع الشيخ يأخذ الحصاة مني »
هكذا قال لي مفضباً وهو يتمتم منكفئاً على زرعه ، سيعود حملاً
بها وعدني به . اعرف ابي قوياً شديد البأس ، وحينما ماتت
أمي احسست بحزنه على موتها يهده اياماً معدودة ويجعله يحرق
لغائفه ويدخن بنهم وصمت في ليالي الوهن الصاخبة بأصوات
الحشرات والجنادب الملحاحة ، وكان يتمعن في وجهي الصغير
المنكفيء مثل كلب القرية العجوز . ، ثم لم يعد يذكرها من
بعد إذ كانت الحمول الخضرتشغل باله وتملاً عينيه . . « سيأتي »
قلت لنفسي وانا أتابع صوت الريح في الخارج متمخيلاً ديب
الخطوات الخفية آتية من البعيد ، من الغابة التي ترسم تخوم
المكان ، وكانت الريح تدور ثم تدور محملة برائحة الزرع ،
مهوامة فوق الكوخ الذي قبعت فيه وكأنها تحمل إلي اخبار ابي
الذي ذهب في المساء الملون بلون الغروب الباهت .
لم يعد ابي في الصباح الذي وعدني به ، وكنت قد

انتظرت ساعات مرهقة بآلاف التصورات وانا اقبع في زاوية الكوخ المتفرد . . وانتظرت سواد النهار عله يعود ولكنه لم يعد . . كانت صورته تراودني وهو يتمم بغضب ، ويده تتخلل بساط القمح الاصفر الممتد حتى النهاية التي تدركها عينايا الكليلتان . . تصورته يشمخ امام الشيخ ويندلع صوته كصوت الرعد الذي ينير ضوءه جنبات الحقول المنداة في الليالي المكفهرة بالغيم . . انتظرته حتى المساء التالي دون أن يعود . . كنت اقضم زاداً تركه لي واحلم بوجهه مغموراً بالبشر والفرح ، ولكنه لم يعد في النهاية ظلت روجي الصغيرة تتحمل في خوفها المربع طنين الاصوات وهسيس الحقول القصية طوال الليل الساجي الذي توجهت انجمه كهابد أضواء السهر .

وفي الفجر الثاني جاءني الفارس الغريب ممتطياً فرسه الشهباء . . وقف متردداً أول الامر ثم ناداني - « يا ولد . . تعال . . اخرج »

تلصصت عليه من وراء ثقب في اللوح الخشي الذي اغلقت به منفذ الكوخ . كان رجلاً غير أبي . عليه سمات تعب كبير ورائحة سفر مضمّن تحمله حتى أدركني في الفجر الذي فرش رؤاه الوليدة فوق الحقل الاصفر . . نفخت فرسه ودقت بقائمتيها الاماميتين الارض المبقعة ببقايا الحطب والاعواد

الصغيرة ، وسمعتة مرة أخرى ينادي - « يا ولد . . تعال . . لا تخف . » تذكرت أبي وعاودتني رائحته وقامته وصوته وشذي الحنين اليه ، لعل هذا الغريب جاء من جهته حيث يوجد هو الآن ليأخذني اليه ولأمرغ وجهي في احضانه .. ازحت اللوح الخشبي وخرجت الى الفارس الغريب ، كان ما يزال ممتطياً الفرس الشهباء . وكان وجهه متعباً ورضياً وواعداً بالخير ، تفرس في وجهي قليلاً ثم زفر نفساً من صدره وتلملم فوق سرج الفرس ، حتى بدأت فرسه نفسها تحرك اقدمها مشيرة طبقة خفيفة من التراب واعواد القش .

قال لي بصوت رضي - « ألم تخف ايها الولد ؟ »
تطلعت اليه ساكناً اتملى وجهه السدي لوحته الشمس ، بينما راح هو يهبط عن صهوة الفرس ماداً يده بحنو الى جلدها الناعم يمسد لها شعرها فتستكين اليه بما يشبه الحب . . لبثت انطلع اليه يستغرقني التفكير ويشدني الموقف كله ، بينما كانت - من الناحية الاخرى - تهب نسائم باردة ، تنحدر صوب الارض المزروعة مارة بقربي متغلغلة بنعومة في انحاء جسدي المنهك من الجوع والانتظار .

صاح بي هذه المرة كما لو انه يستشير انتباهي - « ألم تخف ايها الصبي ؟ » قلت له وقد تملكيتني الحيرة والشدهاء - « ذهب

ابي قبل يومين ولم يعد . « ضحك بأسى » وقال - « اعرف ذلك ايها الصبي . . ولكنك لم تخف وانت وحدك . . أليس كذلك ؟ »
جاش بقلبي حزن داهم ولم اعرف كيف اجيبه هذا الرجل الغريب . .
وحينما رفعت عيني اليه تلقاني بنظرة ودودة فاندفعت اقول له - « قال لي ابي انه سيعود . . هل تعرفه ؟ »

لبث لحظة يفكر وغامت فوق وجهه سحابة غم وتمتم - « اعرفه . . اعرفه . . غير انه سيعود فيها بعد ، والآن تعال معي . . »
ودون ان افعل شيئاً كان هو يرفعي بسهولة وبحطني برفق على سرج الفرس بينما استطاع هو ان يرفع جسمه برشاقة ويستوي بعد ذلك خلفي ماسكاً للجسام بتمرس قوي . وشد اللجام فقفزت الفرس بمهارة واستدارت صوب الدرب الذي وطئه ابي آخر مرة ، وبدأت الحقول واعداد الحنطة والمواضع التي اعتدتها وامضيت فيها طفولتي القاسية تنأى عن النظر بينما كانت الفرس تخب بهدوء فوق الطريق الترابي .

سألني بحنو وانفاسه تصدمني من الخلف - « لا تخف مني ايها الصبي . سأذهب بك الى ناحية اخرى وستلعب هناك مع ولدي محيسن »

قلت له - « هو يعيش في مكان بعيد ؟ »

قال لي بصوته العميق - « من تعني . . ولدي محيسن . . »

نعم انه يعيش هناك وستذهب اليه الآن »

سألته بعد ان مرت في رأسي صورة أبي - « وأبي . . »

لقد قال لي انه سيعود »

صمت الرجل مرة أخرى وتنفس بعمق ولفحتني انفاسه

وجاءني صوته مرتعشاً - « أبوك . . نعم سيعود ايها الصبي . . »

وأفرحتني ذلك حتى قلت له بسذاجة وفرح - « أهو قال لك؟ »

اجابني بارتعاش - « نعم لقد قال لنا جميعاً ما كان يجب

ان نقوله نحن . . اسمع ، لقد كان أبوك شجاعاً . . أليس

كذلك ؟ »

قلت له بفرح - « نعم . . انني اعرفه . . اعرف ابي . . »

كان لا يخاف من الظلام ومن ديب الجحيم في ظلام الحقول

ونحن نعيش لوحدنا في الكوخ . . وحينما ماتت امي قبل سنوات

تركت له بنتاً صغيرة كانت ترضع من ثدي أعرج خرج

يبحث عن نساء في المسكان يستطعن ارضاعها فلم يعثر على

واحدة . . عاد بها إلى الكوخ ورماها في وسطه وهو يحرق فيها

صامتاً صابراً بينما كانت الطفلة ترفض جائعة . . كنت انشج

لحظة تذ مرتعباً . اما هو فقد ظل يحرق كصقر محبوس حتى

خفت صوت الطفلة ، وفي الفجر حملها ودفنها قريباً من الحقل . .

ثم عاد يعمل بصمت . . انا اعرفه . . »

كان الفارس الغريب يستمع إلي ويتسم بغموض وانشغال..
قال لي - « كان يحب ارضه وزرعه . . ولقد قال ما كان يجب
ان نقوله نحن »

سألته - « أقال شيئاً هناك . ؟ »

هددني صوته الدافق بالحزن - « هو ذاك ايها الصبي . .
كلنا يعرف اباك . . اتعلم . . الرجال جميعاً ، هناك يذكرون
اسمه ويهزون رؤوسهم والنساء زغردن له بينما كان هو محمولا الى
الخارج وعيناه تسبحان في بحيرة من الرضى »

لذت بالصمت . تخيلت جسد ابي ينداح من فوق الايدي
والرؤوس ويتصب في نهاية الطريق مزيحاً كل الاجساد المنتنة
رافعاً كلتا يديه نائراً شرر عينيه ، بينما يضحك الاطفال الممزقوا
التياب ويهتف بالهوسات الرجال الآخرون المعروفو الجلد .
وتتدافع موجة الذعر بين اولئك الذين حملوا جسد ابي مهطعي
الرؤوس وترديهم مواطن الرعب . . وبينما كنت أفكر بذلك ، كان
صوته هذا الرجل الغريب يتصاعد خفيفاً خفيفاً ثم يندفق مائلاً
المكان الذي نمر به كما تمتلئ حقول الحنطة التي تركها ابي برائحة
الصباح المحملة بأشواق المسافات القصية المجهولة .

العربة والاطفال ومجيد رمانة

كان عيد الاضحى الكبير قد حل منذ الساعات الاولى من الفجر ، وكانت المساجد تمتلئة بالمصلين الذين ذهبوا يؤدون صلاة العيد ويرتلون بعض الآيات القرآنية ، ويرددون تلك النعمة الجليلة المفعمة بالخشوع في صوت جماعي متساق واحد يتصاعد الى السماء العلية حيث الله وحيث تصمت الملائكة في رهبة ، وفي أثناء ذلك وحينما كان الفجر ينبشق مثل فكرة جميلة في رأس شاعر ، كان « مجيد رمانة » قد قرر نهائياً ان يشتغل في ايام العيد بهمة ، وان يجر عربته الخشبية التي ستزدحم بالاطفال مئات بل آلاف الامتار وسيغول على بقية قوته ولن يكل ولن يشكو وسيجمع مبلغاً كبيراً هذه المرة ، ولن يدع العيد يفوته كما فاته عيد الفطر المنصرم . . في عيد الفطرمات طفله « شهوبي » وقد شغله الموت يومئذ فما سيشغله اليوم في

عيد الاضحى الكبير . ؟ كان قد فكر في المنطقة والمكان الذي
سيعمل فيه ويزدحم فيه الاطفال المتحمسون الجدلون في سعادة
للعيد . . رسم في مخيلته المسافة التي يجب أن يقطعها بعربته
الخشبية الطويلة التي تدور على عجلتين والتي ستغص بجموع
الاطفال وحدد ثمن الركوب في العربة وانتهى من كل شيء
وارتاح باله واطمئن . . وهكذا كان « مجيد رمانه » قد قرر
نهائياً ان تكون مسافة الركوب ذهاباً فقط بين سينما بغداد
وحداثق السكك حيث توجد « حديقة الحيوانات » وحيث
يزدحم الناس وترتفع أبواق السيارات وتختلط اصوات الباعة
مع الاغاني الريفية وحيث تكثر صناديق البيبسي كولا والحلويات
الرخيصة والعنبة المزوجة بالصمغ والبهارات الحارة . . .
الذهاب فقط بعشرة فلوس ، والاياب من حداثق السكك الى
سينما بغداد بعشرة فلوس . . ورحمة الله واسعة والرزق من عنده
تعالى والقوة لا تزال في العضلات المتعبة المتهترئة وسيجمع مالا
كثيراً . .

كان « مجيد رمانه » يحسب انه سيكون وحده في هذا
المكان ولن يتنافس فيه الآخرون من اصحاب العربات الخشبية
واكثرهم اصحابه ومعارفه ولكنه راهم يتقاطرون مثل الدود ،
وامتلأت نفسه بالهم والتشاؤم - « وين ما يروح الانسان

يشوف گدامه كطاعين الخبز . . « وحاول أن يطمئن خواطره
المهتاجة - « هذا هوّه . . الرزق على الله . . » . ابصر عدداً
من العربات الخشبية ممتلئة بالاطفال الذين ارتدوا ملابس ملونة
فاقعة وهم يغنون وقد علت وجوههم آثار نوم ما تزال باقية وقد
اختلطت مع معالم السعادة الطافحة . .

راح « مجيد رمانه » يجأر بصوته ويدعو الاطفال . كان يرتدي
دشداشة خفيفة وقد لفّ حول وسطه حزاماً جليدياً متشقّقاً
ورفع اذبال الدشداشة وربطها بالحزام فبانت ساقاه الممتلئتان
بالشعر الكثيف مثل خيوط من الماء الاسود الآسن . وتجمع
بعض الاطفال والصبابا من حوله ووجد « مجيد رمانه » من
بينهم فتاتين ترتديان ثوبين زرقاوين بلون غامق وفي يد كل منهما
جنطة من النايلون وهما تحاولان ان تبدوا كالسيدات الكبيرات
ذوات الحشمة . . قال لهم في حاسة وتوسل - « تعالوا تعالوا . .
كل واحد بعشر فلوس الى حدائق السكك . . » وحدث أحد
الاطفال في وجهه ببلادة ، ومد أحدهم يده الى جيبه وتحسسه
بجذر ، وصعد قسم منهم دون سؤال ، وجاءت فتاة رقيقة
الساقين وفي يدها دف تضرب عليه ، وخن « مجيد رمانه » انها
ستغني أغان شائعة كثيرة وسيسمع وسيطرب وسيمتلأ بهجة
وينسى همومه وتعبه وثقل العربة . .

وجر العربة بعد أن غصت بالاطفال وصاح بصوت معصور
- « يا الله . . » بينما تكوم الاطفال على ارضية العربة الخشبية
وجلست الفتاة الرفيعة الساقين عند زاوية العربة وشرعت
تضرب على الدف وراح الاطفال يصفقون على الايقاع . . كان
« مجيد رمانه » يجر العربة وعيناه الى الارض . إن ثقلهم كبير
ولكنه سيعتاد عليه ولا بد ان يجمع كمية من النقود تكفيه لأيام
معدودة ، ولن يدع التعب يسيطر على همته حتى ولو اقتضى
الامر ان يجر العربة آلاف المرات ، فعلى الاقل انهم آدميون
هؤلاء الاطفال ، وعلى الاقل انهم يغنون ويصفقون وتؤنسه
حركاتهم وضحكاتهم البريئة العذبة ، وقبل يوم كان يجر العربة
وهي محملة بأكياس الثمن وتنكات الدهن وعلب المساحيق
الصابونية والاشياء الثقيلة الاخرى التي كانت تدك قوته المتهرثة
اما اليوم فهو يحمل بعربته قلوباً لا تعرف الهم . . وتذكر
طفله « شهبوي » الذي مات في عيد الفطر الماضي وترحم عليه ..
ليته كبر قليلا وليته ذاق مباحج العيد وليمت بعد ذلك ، ولكنه لم
ير شيئاً . والله في موته حكمة . . لمح « مجيد رمانه » بين الاطفال
المتكومين طفلاً ساكناً وادع الوجه ينظر في صمت وقور ولكنه
متحفز ، ويدبر عينيه بين رفاقه في هدوء طفولي ثم ينقلهما الى
مناظر الشارع الصاخب ويتفرج لوحده في عالم من الناس

والسيارات . . « اهو وحده . ؟ » تسامل « مجيد رمانة »
وظل يحدق فيه . رآه يرفع يده فجأة ويشير الى مكان ما من
الشارع ويبتسم ابتسامة عريضة . . ارتفعت اليد مثل هبة
ريح ناعمة وتحركت الاصابع الصغيرة وتخييل « مجيد رمانة »
سرباً من الحمام يصفق بأجنحة بيضاء نقيّة . . أحبه وظل يحدق
فيه وسامل نفسه مرة أخرى - « اهو وحده . . . » والفتاة
الرفيعة الساقين تضرب على الدف وتغني ويردد معها الاطفال الآ
هو . . هذا الشيطان الصغير . . « كيف يمكن ان اعرف انه
وحده . . ولكن لماذا اريد ان اعرف ذلك . . ربما لأنه صغير
صغير جداً . . » وقدر عمره بين الثالثة او الرابعة . . « يعني
يجوز تركته امه . . ويجوز ضايع . . » كان طفله « شهبوي »
قد مات في عيد الفطر المنصرم ، اصيب بهزال شديد ولم يعد
لبن امه يكفيه ولم تنفعه مستشفى حماية الاطفال وهكذا مات
ببساطة ، وظل يذكره وفي قلبه نغزة . . ظلت الافكار تتأكل
« مجيد رمانة » وتتلاعب به ، وقد انقضى نصف النهار وكان
قد جرت العربة مرات عديدة وحمل اطفالا كثيرين صعدوا
الى العربة ونزلوا منها الآ هو . . هذا الشيطان الصغير الساكن
الحركات . . دفع له عشرة فلوس فقط ثم آثر ان يبقى طوال
النهار وكان مادفعه اجرة يوم كامل . « شسويلله . . انزله

بالقوة . . . » وتذكر « شهوي » وترحم عليه وتمنى لو انه كبير قليلاً حتى يرى بعض مواسم الاعياد وتمتلاً عيناه بفرحة واحدة لا غير .

وبدا « بجيد رمانه » يفكر كالشيطان ، فقد راحت الهواجس الغائمة الغريبة تخيم على عقله ، ماذا لو اخذ الطفل معه وساقه بعربته وقدمه الى زوجته « فاطمة » . . ان احداً من الناس سوف لا يحس به . وسوف يمضي به الى حجراته هناك ويقدم له طعاماً ويشترى له بعض الحلوى ويقنعه بالبقاء - « معناها صرت حرامي . . » وضحك « بجيد رمانه » على نفسه . . يا له من خاطر يخجل ذلك الذي سيطر على تفكيره ودغدغه . . وتمتم مع نفسه - « يمكن كل انسان يفكر بهذا اذا كان مثلي . . » كان وقت الظهيرة قد ولى ، واحس « بجيد رمانه » بشيء من التعب بعد ان قطع الطريق عشرات المرات .

- « اسمع . . تروح ويابه »

ورفع الطفل عينيه .

- « تروح ويابه . . »

- « لا . »

- « اخاف انته جوعان . . تروح ويابه »

- « لا . . »

وحار « مجيد رمانة » وقلب الامر على وجوهه وعاد يسأل

- « ابني . . عيني انتة وين اهلك . . أخاف جوعان . . »

- « لا . . »

- « زين تروح ويابه »

- « لا . . »

- « وين اروح بيك لعد . . يمعود لا تبليني . . »

كان الاطفال قد ذهبوا ولم يبق إلا هو والطفل . . فكر

بطرده من العربية ولكنه أثر ان يجره بمفرده .

- « زين تنزل هنا . ؟ »

وبكى الطفل لأول مرة وانكسر قلب « مجيد رمانة »

مثل حبة فستيق ، وشعر انه لا يحتمل كل هذا العذاب وسأله

متضيقاً - « انتة وين اهلك . ؟ »

- « ما ادري . . »

- « أويلي ربي أويلي »

وجر « مجيد رمانة » عربته باتجاه مركز الشرطة واجتاز

زحمة الناس وسلمه هناك وعاد كثيراً . جر عربته الخالية الى

مكان « مصطفى الجايجي » على الرصيف القريب من سينما

بغداد ، ترك العربية عند منعطف الشارع الفرعي وطلب استكناً

من الشاي وجلس يرتشفه بتأن . . احس باجهاد ثقيل يسري

في ساقيه وطقطقت اصابعه عند ما حركها وشعر براحة خفيفة
وتأوه . . كان هناك رجل ضخم مقطب الجبين يجلس قريباً منه
ويرتشف الشاي ويتحدث مع الآخرين . . سمعه يقول في النهاية
- « ماكو غيرنا احنا . . علينا تو كع بالاخير ومن يموت واحدنا
محد يمشي ورا جنازته . . ايه . . » رشف « مجيد رمانه »
بقية استكان الشاي وآثر ان ينصرف بتفكيره الى قدميه اللتين
امتلاّتا بالطين ، تناول حجارة قريبة ومسح بها قدميه ، ورمى
الحجارة الى الطريق ، وتمهد .

أغنية زنجية في ظهيرة قائظة

قطع جزء من شارع الرشيد قرب الجيدرخانة . طوى
الجريدة وتأبطها ومشى بخطواته الوثيدة وتنفس لهاث الظهيرة .
هبط عن الرصيف فجأة وعبر الشارع مسرعاً ولحق بباص
المصلحة « ٢٣ » واستطاع ان يمسك بالعارضة البيضاء رافعاً
جسده عن الارض بعناء ، اختار مقعداً الى جهة اليسار حيث
يتكون الفياء والظل ، ومسح على وجهه وتنفس طويلاً ، ألقى
بعينه الى الشارع والرصيف عبر زجاج النافذة وراح يحدق
شاعراً بهدوء نسي يسري رويداً في اعضائه . . بصورة تلقائية
أرخی جسده على المقعد ولم يعد يفكر ، بينما كانت عيناه تنغلقتان
شياً فشيئاً كأنها الاغفاءة . . عندما اهتزت السيارة بقوة صحا
كما لو انه ينهض من نومة ثقيلة ، ورأى بوضوح وجهها الليلي . .
كانت جالسة امامه ، ولم يكن يبين منها سوى جانب من الوجه

الاسود ، غير انه عرفها كما يعرف نفسه . . كان الجو الذي يحيط به داخل السيارة وفي الظهيرة القائظة مقلماً بلهات دبق ثقيل ، إلا « هي » - هذه المرأة الوديفة الوجه التي يعرفها كما يعرف نفسه . . نظيفة لامعة ملساء مثلما كانت في السنوات المنصرمة . . ابتسم في سره بامتنان وشعر لاول مرة في هذا الوقت القائظ باستيقاظ عجيب في مفاصله وذهنه المخدر ، وراح يحدق في جانب الوجه الزنجي دون ملل واحس انه يعود خفيفاً مثل نسمة صغيرة . . لم تشعر به المرأة الزنجية البديئة . ظل يتملى في جانب وجهها الفاحم ويسترخي على مقعده لصق نافذة السيارة . . ابتسم مع نفسه مرة اخرى . .

- « اهو انت . . ايها الوجه الليلي النظيف ؟ »

- « نعم يا سيدي . . وانت ، اتكون انت سيدي القديم ؟ »

هز رأسه واغرض عينيه كما لو انه يقدم امتنانه في فيض

من الرضى والسعادة وانساب في غمرة افكاره . .

- « هو انا . . اترينني تغيرت . ؟ »

- « لشدما تغيرت . »

- « اجل . . نفايات رجل بروجوازي . . اترين . »

- « آه يا سيدي . . لشدما تغيرت . »

- « هو الزمن يا فاطم . . هل تذكرين عندما كنا نسميك

« فطم » وندللك .. كنا نحبك »

- « اجل .. اجل . كنت احبكم جميعاً ، واحب الطفل

الذي مات »

- « هل تذكرينه حقاً . . لقد مضت على موته سنوات

طويلة .. كان طفلاً رائعاً .. »

- « كان رائعاً . »

- « وكنت تغنين له بصوتك العريض المليء برائحة الصيف

تمويمتك .. لقد نسيتمها ونسيت كلماتها .. دللول .. دللول .. »

- « آه يا سيدي .. الطفل الذي مات .. دللول يمه دللول ..

عدوك عليل وساكن الجول .. »

وابتسم الرجل وحده صاعداً في حالات من السعادة تتدافع

مع افكاره الخفية . . توقع ان يتحرك الوجه الليلي ويلتفت

اليه غير انه ظل وحده يردد في تهويمة خفية عذبة .. « دللول ..

دللول .. »

- « كان صوتك الزنجي مليئاً مثل زهرة متخممة باللون . »

- « كانت تلك اغنيتي الاثيرة التي ارددها للطفل الذي

مات . »

- « انت الآن اغنية نظيفة مثل وجهك الاسود النظيف . »

- « لقد تزوجت يا سيدي . . هل تعلم ، وانجبت ستة

أطفال • «

- « تبارك الله •• انا اعيش وحدي •• اعلمي اني اعيش

وحدي »

- « وسيدتي •؟ »

- « تلك المرأة •؟ تركتني بسهولة . »

- « ذلك امر محزن يا سيدي . »

- « إنها امرأة قذرة •• بعد موت الطفل الذي كنت تحبينه ..

تركتني بسهولة وذهبت . »

- « انه امر محزن يا سيدي • »

- « ولكنك انت بالذات سعيدة غاية السعادة يا فطم ••

أليس كذلك •• دعيني احدثك عن حياتي اليوم •• حياتي التافهة
الباقية لي •• انها تافهة وتافهة جداً ، ويفرحني لو تعلمين ان
ينصت إلي مخلوق نظيف طيب مثلك •• هل تعلمين انك الآن محض
اغنية تهبط علي فجأة في هذا الوقت وتملؤني عدوبة •• دعيني
استعرض لك شريط حياتي اليومية ، وهي مليئة بالتقزز . وفي
الوقت الذي يصطبغ فيه اهابي باللون الابيض اشعر بالقار يملؤ
جلدي كله •• اما انت يا فطم فما انظفك وأشد نصاعتك . انك
الاغنية التي ترددت في زمن الرضى والسعادة وما تزال ترن صافية
مثل بلور أبيض ناصع •• استمعي الي كيف هي حياتي اليومية

السقيمة ، وكيف تتطافح بالوحل الذي يسمونه الضجر والموت ..

ووو..ووو.. لقد تركتني تلك .. اسمعي . ووو..ووو..»

تحرك جسد المرأة السوداء البدينة وعاد الحيز الذي احتله

جانب الوجه الزنجي اللامع فارغاً .. وقبل ان تهبط في موقف

المصلحة ترددت هفوة هواة لافح قرب الرجل القابع لصق نافذة

السيارة ..

استدار الرجل من مقعده . امتد بصره خائباً بينما اختفت

المرأة في موقف الباص ..

تخيل الرجل وحده تلك السواحل الليلية الغارقة في الظلمة

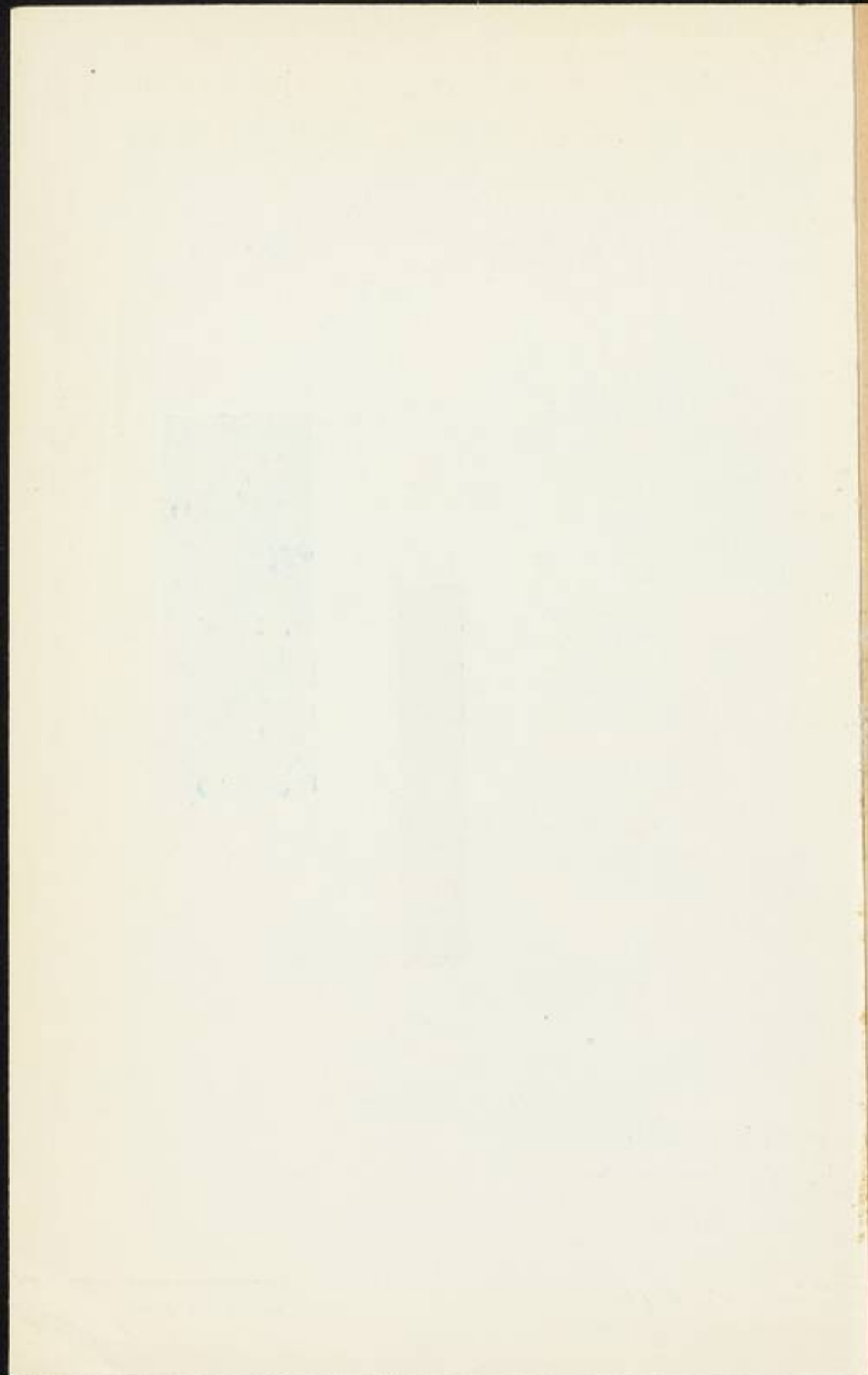
الشفيفة . تخيل طيراً متفرداً يهوي متقصفاً الجناح مذعوراً على

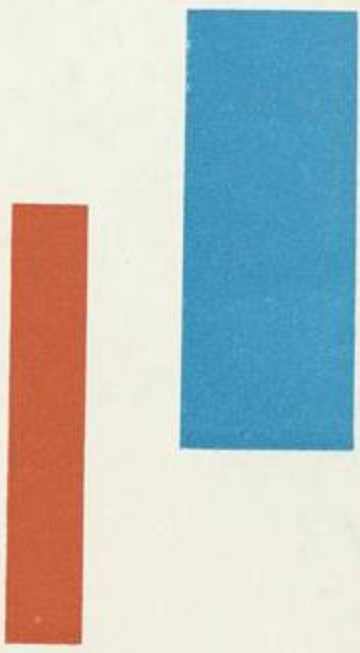
الساحل ، وراح يمضغ وحده بقايا رنين عميق بعيد « دللول يمه

دللول .. عدوك عليل وساكن الجول ... »

القصص

- ١ - ألق ما في يدك
- ٢ - حكايتان عن المدينة «ن»
- ٣ - سهيل على السلم
- ٤ - الادانة
- ٥ - الرماد في اللون الازرق
- ٦ - بحر الى رمال البلور
- ٧ - القرد والبيغاء
- ٨ - رحلة عبر عذاب الحلم
- ٩ - الفارس والبرج
- ١٠ - العربية والاطفال ومجيد رمانة
- ١١ - أغنية زنجية في ظهيرة قاتظة





المخطوط للشاعر صادق الصائغ
سأدت نقابة المعلمين العراقية على نشره

طبع الغلاف بمطبعة البيان

ثمن النسخة ١٥٠ فلساً

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 074072461

(NEC)
PJ7842
.H52
A8
1970